أم الولي

قصص

تسنيم فهيد

كيان للنشر والتوزيع

تسنيم فهيد

أم الولي

مجموعة قصصية

دار كيان للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة©

إلى...

«جابرييل جارسيا ماركيز»

كَبيرنا الذي علّمنا السحر

دوائِر

حينما استيقظت ووجدتني نائمة على الأريكة، لم أعِ ما حدث أو الذي جاء بي هنا. حين سألته أخبرني أنه لم يشأ أن يزعجني حين جاء متأخرًا ووجدني غافية أمام التلفاز. الأمر الذي جعلني أعد حتى الرقم ١٠ قبل أن أخبره أن ما يقوله لم يحدث. أنا كنتُ مستيقظة حين عاد بالأمس وتناولنا عشاءنا معا وشاهدنا فيلمًا ثم انتقلنا إلى غرفتنا وغفونا بعد أن مارسنا الحب. لكنه احتضنني وأخبرني أني لا شك كنت أحلم بكل هذا وأنه لو كان يدري أن أحلامي تشمله لما خشى إيقاظي. لم أخبر أحدًا بذلك، حتى صديقتي المقربة التي أستغلها دومًا في استشارات نفسية دون أن أدفع لها مليمًا. فقط حين خرج للعمل، ظللت أبحث عن شيء يؤكد روايته أو يدحضها، لكني لم أجد ووجدتني أفكّر في الأحلام الغريبة والكوابيس التي لا تتوانى عن محاصرتي كل ليلة، وسلّمت أخيرًا بأن -ما ظننته حدث- لم يكن إلا حديث نفس أو أضغاث أحلام.

صرت أفتح عيوني على اتساعها فجأة وأتوقف عن الكلام وأسأله هل أحلم أم أن هذه اللحظة حقيقية؟. يضحك مني ويربت على وجهي ويُخبرني أني أضع «الحلم» الأخير في رأسي وأفكّر فيه كثيرًا وأن هذا مُرهِق. يحكي لي عن أن الجميع معرض لِما حدث لي وأحيانا لا يمكننا معرفة الواقع من الخيال.

لكن الأشياء التي تُبدَل أماكنها، والأطعمة المطهوة الموجودة في الثلاجة ولم أطهها -بل لم تكن موجودة

في الأصل نيئة-، كلامه معي عن أماكن لم نذهب إليها مؤخرًا، جعلني أتهاوى وأبحث عبر المواقع الإليكترونية عما أمر به. الأمر لم يكن سهلًا، فلا يمكن أن تمر بعرَضين مختلفين. وأنا -على حد ما يقوله- لا أتذكر مواقفًا قد حدثت -وكأن أحدًا أخرج عقلي ومسح بيده تلك الذكريات منه- وأتخيّل أمورًا أخرى بتفاصيلها، يزعم هو أنها لم تحدث. كيف لي أن أسألهم في المنتديات الطبية عمن يفقد ذاكرته وفي نفس ذات الوقت يتذكر مواقفًا واضحة وملموسة لدرجة أنه يؤمن في كونها حقيقية؟!.

كان الأمر ليمر ويكتمل له كما يشاء، لو أنه لم يُخطئ ذلك الخطأ الكبير، حين شكرني على إزالة البقعة عن قميصه المفضّل الذي ارتداه منذ أسبوع عندما خرجنا لنتناول العشاء مع أصدقاء له. وقتها هززت رأسي وجلست على طرف السرير كقطةٍ طيبة لا أدري شيئًا عمّا يتحدث عنه، إلا أنه واصل محاولاته لتذكيري بما حدث. جلس أمامي على ركبتيه يُذكّرني بالأغاني التي اخترتها لتصدح من السيارة ونحن في الطريق، وعن أني تطوعت بالبحث عن عروس لصديقه «سامر»، وظل يسترسل ويتمادي وأنا أبكي بداخلي وأهز رأسي بعنف وهو يذكرني بجلستنا على الطاولة المفضلة لي في هذا المطعم، وكيف أنه حجزها مسبقًا لموقعها الفريد، وأني هززت يده -عن غير قصد- فأوقع العصير على قميصه، الذي عاد الآن جديدًا بفضلي. هززت رأسي وتكورت

على نفسي وبعدما خرج اتصلت بأمي وطلبت منها أن تتصل بي بعد ساعة، دخلت المطبخ وجئتُ بسكين وجرحت ذراعي جرحًا طوليًا. لم أهتم للألم، على العكس كنت أشعر وكأنه تميمتي الوحيدة للنجاة ولمعرفة الحقيقة من الأوهام.

هبطتُ من الشقة -بعدما شغّلت المجيب الآلي- وذهبت لصيدلية بعيدة عن بيتي، وطلبت من الصيدليّ أن يطهر الجرح ويضمده، لكنّه أوصى بأن يراه طبيب لأنه يحتاج إلى خياطة. وافقته ومددت يدي وأخذت كُتيب إعلان عن أحد الأدوية موجود أمامه، وسألته عن خدمة توصيل الدواء للمنزل. ذهبت لمستشفى عام، كي أخيط الجرح فطلبوا مني أن أشتري المخدر. عُدت للصيدلية، فتعرف عليّ الصيدليّ فتنفست الصعداء قليلًا، رجعت إلى المستشفى ليخيطوا لي الجرح.

كان أول ما فعلته بعد أن دخلت شقتي، هو تفريغ شريط المجيب الآلي بعدما استمعت لمكالمة أمي التي تعجبت من أني لستُ موجودة بالبيت. اتصلت بالمطعم الذي زعم أننا ارتدناهُ سويًا، وأخبرتهم أني فقدت قرطي حين كنتُ أُصلح زينتي في غرفة السيدات، غير أنهم أخبروني أن عاملات النظافة لم يبلغن بالعثور على مفقودات وسألوني عن اليوم الذي فقدت فيه قرطي وعن رقم الطاولة التي جلسنا عليها، فأخبروني أن هذه الطاولة كانت محجوزة باسم «فلان الفلاني» لعشاء عمل. أنهيت المكالمة باتفاق أني سأذهب إليهم لمراجعة

الطاولات فلربما اختلط علي الرقم. جلستُ على الأرض وتنفست الصعداء مرة أخرى، أنا لستُ مجنونة ولا أسير حتى في طريق الجنون.

حين عاد في المساء، سألني عما لحق بي، أخبرته بحادثٍ مختلق بعيد كل البُعد عما حدث. في اليوم التالي ذهبت للمطعم وتأكدت من كشف الحجز أننا لم نجلس على تلك الطاولة ولا غيرها خلال الأسبوعين الماضيين. عدت للبيت واتصلت بالصيدلية وذكّرت الصيدليّ بنفسي فتذكرني، طلبت بعض الأشياء غير الضرورية، وحين جاء بها فتى التوصيل، وضعتها مع الكتّيب وشريط المجيب الآلي في حقيبة السفر المُخزّنة تحت السرير كدليل على أني لا أتوهم. بدأت في قلب البيت رأسًا على عقب أبحث عن أدوية تتعلق بمرض نفسي أو عقلي، وحين وجدتها في أحد أدراج المكتب، لم أندهش. وبدأت الصورة تتبلور أمامي، زوجي المريض يضع لي أقراصًا منومة في الطعام ليحكي لي فيما بعد مواقفا لم تحدث. زوجي الذي يعاني من «الذهان» ويحبني لحد الهوس، أراد أن يُدخلني رأسه المريض لأشاركه هلاوسه وأوهامه. زوجي الذي توقف عن أخذ أدويته وارتضى عالمه الخاص، كان كل ما ينغص عليه حياته أني لست جزءًا منه، لذا قرر أن يُدخلني دائرته. كان بإمكاني مواجهته، الثورة عليه، وضعه في مصحة عقلية، لكني لم أفعل أيًا من ذلك.

في اليوم التالي، حين ذهب لعمله، نهضت من مكاني، جمعت كل ملابسي وصوري وحاجاتي الشخصية، كل ورقة تحمل اسمي، فرشاة أسناني وأدوات زينتي. كنت أمحو أثري تمامًا كأني لم أكن هنا، وقررت أن أعاقبه بما يستحق. أنا لستُ زوجته بعد الآن، بل في الأساس لم ألتقيه من قبل، سأختفي وأتركه يتعفن في مرضه وأوهامه، وإن التقيته مصادفةً -بعد سنوات- سأدَعي أني لا أعرف من هو. لن يعرف إن كانت زيجتنا حدثت بالفعل أم أن عقله هيأ له ذلك، طوال هذه المدة.

كانت هذه الصفحات من المذكرات الشخصية -بالإضافة لتقرير مفصّل عن الحالة- أول ما أعطاني إياها مدير المصحة كي أقرأها قبل استلامي لهذه الحالة شديدة التعقيد. المرأة التي تسكن الغرفة رقم ٢١، والتي تبدو مسالمة وبشوشة، مريضة «ذهان». تظن أنها هربت من زوجها المريض بالفصام بعد أن حاول إيهامها بأنها هي المريضة، بيد أنه هو المريض. وتعيش الآن على حد ظنّها في هذا المنتجع المنعزل، بعيدة كل البعد عن البلد التي كانت تعيش فيها مع زوجها. تؤلف الموسيقى وتقرأ لماركيز وساراماجو وتحفظ أشعار سيلفيا بلاث وبودلير. إن اطمأنت لك، تحكي تجربتها مع الزوج المريض دون أن تُسقط منها تفصيلة أو أن تزيد عليها كلمة مثلما تفعل منذ ما يزيد عن خمس سنوات، لا تُظهر أي تحسن بالرغم من انتظامها في تناول الدواء، لا تمر بأية اضطرابات جسدية تؤدي

لنشاط حركي أو نوبات عنف. تعيش في عالمٍ آخر آمن بَنَتْهُ لنفسها وأعجبها. لا تستقبل زيارات، ولكنها أقامت علاقة صداقة وطيدة مع أمها التي تجيء بانتظام كل أسبوع وتلتقيها في الحديقة على اعتبار أنها إحدى نزلاء هذا المنتجع.

في البدء زارها زوجها عدة مرات، لكنها لم تبد أي رد فعل حين وقعت عيناها عليه وكأنها لا تعرف من هو ولم تلتقيه من قبل، بعدها توقف تماما عن الزيارة وأخبرتنا أمها أنه استكمل حياته بدونها.

حين رأيتها في الحديقة، لم أعرف -وأنا الطبيب النفسيّ الذي درس في أفضل الجامعات الأجنبية-أنها المريضة التي تقطن الغرفة رقم ٢١، شعلة الضوء التي تُنير عينيها، ضحكتها الرائقة، ملامحها البشوشة، نبرة صوتها الودودة الواثقة. جعلني أظن أنها مجرد زائرة، وليست مريضة الذهان.

الرسول الغريب

حامل السَكِينة

«لا تحدّث أحدهم عمّا تعاني منه. لا أحد يهتم، لن يعرف أحد لم يزر الجحيم، ماهية الجحيم. الأمر أكبر من إدراكهم جميعًا. وأكبر من إدراكك. ادفن ما تعاني منه بعيدًا بداخلك. ادفنه لأبعد مكان يمكن أن تطوله يد. لا تشتكِ من شيء. ابتسم للجميع وهز رأسك حين يسألون عنك. ابتعد .. ابتعد.. اجر بأقصى ما استطعت من سرعة، لا تتوقف أبدا ولا تلتفت لهم».

هذا ما نصحني به الرجل الغريب الذي زار أحلامي منذ فترة. قال لي ذلك وهو ينظر في عيني ويشد على يدي. نعم أنا أذكر الكوابيس والأحلام المبتورة ولا أسقط تفصيلة. غير أن هذه الكلمات لم أكن لأتذكرها بهذه الدقة اعتمادًا على حلم. أنا أتذكرها لأني وجدتها مكتوبة في ورقة صغيرة صفراء وملصوقة على مرآة الحمّام. للحظة تخيلت أني لازلت في الحلم، غير أني مستيقظ تماما والورقة في يدي. أرجعتها مكانها وانتظرت أن تختفي من تلقاء نفسها. لكنها لم تفعل وبقيت. كان بإمكاني أن أبحث ورائها، أن أستنزف نفسي لمعرفة من كتبها بخط منمق وتركها لي على المرآة. غير أني قررت ألا أفعل وأن أوجّه طاقتي نحو دفن كوابيسي الليلية وأحلامي المبتورة وهلاوسي المرئية والمسموعة بعيدًا.

أستيقظ يوميًا لأنفذ وصية الرجل الغريب -الذي مر سريعًا وترك في قلبي سكينةً ما- أدفن ما أمرّ به بعيدًا، أحلق ذقني وأغسل وجهي وأتناول فطوري وأمضي في

طريقي للعمل. أتحدث مع زملائي وأكتب المقالات التي تُطلب مني وأقيّم مقالات الآخرين من أجل النشر. أضع خطط الكتابة الشهرية وأتابع الموقع الإلكتروني للمجلة.

أجلس في المقهى بعد انتهاء ساعات العمل لأدخن الشيشة وأثرثر مع الأصدقاء. أتعامل بعادية لا تليق بالاعتداء الذي يمارس على روحي كلما غفوت للنوم. توقفت عن زيارة الطبيب النفسي منذ زارني الرجل الغريب ومنحني وصيته، فالطبيب قد فشل في تخليصي مما أعانيه. كما فشل قبلها شيخ الجامع الذي حاول محاربة همومي ومشاكلي بالرقية الشرعية مرات ومرات. لشهور طويلة، انتظرت أن يمر الرسول الغريب في حلمي مرة أخرى، أن يربت بيده على قلبي ويشجّعني في المضي قدمًا. لكنه لم يجيء. كان معنيًا بتوصيل رسالة وأنجزها على خير وجه. لن يمر ثانيةً في أحلامي، فلابد وأنه مشغول بإيصال رسائل أخرى.

«أن تكون الرسول الغريب الذي يمر سريعًا ليلقي بعضًا من سكينة وقليل من طمأنينة في قلوب المعذبّين ليلا .. لأمرٍ جليل، لابد وأنك دفعت الكثير كي تناله».

لأيامٍ كثيرة كنت أفكّر في هذا.. أن أكون أحد الرُسل الغرباء. لم أكن أعرف لمن أُقدّم أوراق اعتمادي؟. من المسئول عن توزيع الرؤى والكوابيس والأحلام؟. من المنوط ببث الطمأنينة أو إرسال الرُسل برسائل مبهمة بغية التحذير. من اختص هؤلاء للتربيت على قلوب

المتعبين؟. صار الأمر شغلي الشاغل. كنت موقن أن الورقة الصغيرة التي تجلس في قلب مرآتي هي تذكرة المرور. غير أني لا أعرف الطريق الذي يجب أن أمر منه.

لم أعرف متى على وجه التحديد بدأت أحلامي في أخذ منحىً آخر غير الذي اعتادته. لم أعد ذلك التائه الذي يبحث عن مخرج. أو ذلك الحبيس الذي تعطلّ به المصعد ونساه الناس ليعاني من الاختناق والموت البطيء. فجأة صرت أقف في الزاوية أنظر لما يحدث للجميع دون أن أتدخل. صرت مراقبًا غير مرئي. وكأن هذا ليس حلمي، وكأني دخيل على حلم آخر. لم أكن أعرف أصحاب الأحلام، وأشعر بالغربة بينهم. لم أفهم مالذي تعنيه كلماتهم وإلام تشير؟!. لكني حاولت أن أستمتع بالمراقبة. بأن أكون مشاهِد لا فاعل.

لسبعة أيام كنت محبوسًا في حلمٍ واحد. يتكرر بصورة يومية، بنفس التفاصيل وتسلسل الأحداث ذاتها. حتى أن تفاصيله استحوذت على يومي. صرت أبحث لصاحب الحلم عن مخرج. صرت أفكّر في الأحداث وأودَ التدخل من أجل تغييرها. في اليوم الثامن وعند تفصيلة معينة، ناديت عليه أن يتوقف. لم يكن صوتي مسموعًا وكأني داخل فقاعة زجاجية، صوتي يعود لي.. ولا أحد يراني. لكني لم أستسلم. في الأيام التالية، كررت محاولات التدخل في الأحداث. كنت أنادي عليه لأخبره أن يفعل كذا ويتوقف عن كيت. لشهرٍ كامل كنت أفعل ذلك دون كلل. إلى أن التفَتَ إليّ أخيرًا، وكأني

ظهرت له من العدم. ابتسمتُ وحين بدأت في نُصحه، توقفت. لا أحد يُحب أن يُوجّه «غريب» خطواته. وضعت يدي على كتفه وأخبرته أن ينتبه وألا يتسرع في اتخاذ القرار، ثم تركته وذهبت. لم أعد مرة أخرى لهذا الحلم، انتقلت لغيره وقد أدركت ما يحدث. لن ألتقِ بالغرباء أمثالي. لن يوزّع علينا أحدّ المهام أو يوكّلنا بتوصيل رسائل. فقط، نُوضع في حلم أحدهم لفترة من الوقت حتى نألفه. نعرف الشخص وما يعانيه ونصير معنيين بالبحث عن نصيحة ملائمة، أو أن نكتفي بالابتسام في وجوههم والربت على قلوبهم المتعبة وبث بعضًا من السكينة في أرواحهم ونمضي.

صرت معنيًا بوظيفتي الجديدة وتماهيتُ فيها لأقصى درجة حتى أني توقفت عن الذهاب للعمل أو الرجوع للبيت دون أن أنتبه لذلك. وحين عُدت أخيرًا لمنزلي اكتشفت أن آخر يسكن فيه. في البداية لم أفهم. حاولت التحدث إليه ومناقشته لكنه لم يسمعني. رابطتُ في بيتي ورفضت الخروج منه، لكني اكتشفت بعد فترة أنه لا يراني.

هل كان ذلك هو تذكرة المرور لعالم الغرباء الطيّبين؟. لست أدري، لكن لا يهم. فأن تكون الرسُول الغريب حامل السَكِينة، أمرٌ يستحق.

جحافل الذباب
وذاكرة الزكام

حين همس الصبيّ في أذنيها:

- «مات، مات يا خالة».

فتحت عيونها الذابلة وبُعث فيها الروح من جديد. اتكأت على ذراعيها، وأخذت في استجوابه: هل تأكدوا؟.هل أخرج المشفى بيانًا رسميًا؟. هل أعلنت وكالات الأنباء؟. هل حددوا يومًا لدفنه؟. وحين تيقنت، ابتسمت. فهي منذ ذلك اليوم البعيد، لم تذكر المجزرة. ولم تتحدث عن الأبناء الذين فقدتهم مجتمعين ولم تتعرف على أجسادهم التي أحرقتها الدانات وتحللت تحت الركام. لم تُخبر أحفادها عن رائحة العفونة ولا عن جحافل الذباب، ولا عن الوجوه التي تآكلت وطُمست. تناست مشهد حصارها مع أحفادها الرُضّع وأبناء الجيران في أحد المنازل، حين هاجمها الجنود وأجبروها على الخروج منه بالقوة. لم تحكِ أنها شاهدت قنص «أبي جندل» -وهو معصوب العينين مكبّل اليدين- من ثقب أحدثه الرصاص في إحدى الحوائط. لم تستطع أن تعزّي أم «جمال» الذي شاهدت بقايا جسده بعدما داسته الدبابات، فغطّته بشرشف أتت به من أحد البيوت المهجورة في الحي.

تنفست الصعداء وتحاملت على جسدها الواهن ونهضت من الفراش. خرجت إلى الساحة، متكئة على الصغير رافعة صوتها -الذي بُح منذ زمن- بالزغاريد. اجتمعت النسوة ليباركن لها ويطلقن الزغاريد معها. فبالنسبة لكل من في المخيّم، هو خرج من حساباتهم

حين سقط منذ سبع سنوات في هذه الغيبوبة التي تعفّن فيها قبل أن تتوقف أجهزة جسده وتصعد روحه النتنة للسماء. لكنّهم جاملوها بإطلاق الزغاريد والالتفاف حولها حين حزّمت خصرها ووقفت برغم شيخوختها وما صاحبها من آلام الفقد ونار الذكرى، كي ترقص فرحًا في نَفس الساحة التي تكوّمت فيها جثامين الشهداء.

في المساء، ارتدت عباءتها الملونة وجلست في باحة الدار تتلقى التهاني. ظلّت تحكي لهم عن البشارات التي كانت تأتيها لتربط على قلبها وتؤكد لها أنها عينَها ستقر وستشهد هذا اليوم. في آخر الليل، ذهبت النسوة لديارهن، وجلست هي في باحة المنزل، تبتسم لأطياف من ملئوا المكان. ظلت تربت على صدرها وتهز رأسها لترحب بهم وتعرض عليهم الجلوس لتضيّفهم وتصنع لهم الشاي.

الصبيّ الذي كان يتجه نحوها كي يأخذها للمنزل، رآها تنهض وتتكئ بيدها على من ليس له وجود. فَـفزِع للدار كي ينادي أباه الذي جاء ليرى ما يدّعيه الولد. لكن الأب وجدها جالسة في مكانها مبتسمة تنظر للأمام، فلطم الولد على كتفه وذهب ليعاونها على النهوض مُخبرًا إياها عن أضرار الجلوس في الطلّ. وحين اقترب، رأى عيونها ضاحكة، مثبّتة على المدى البعيد وقد فارقت الروح الجسد.

الغُول

حين أيقظَتْها الصغيرة من النوم لتخبرها بصوت يخنقه البكاء ويقطر منه رعب حقيقيّ عن ذلك «الغُول» الذي يقف عند طرف سريرها، لم تشك في الأمر. وظنّت أنه مجرد كابوس داهم طفلتها واكتفت بأن أفسحت لها قليلاً ومددتها بجوارها. لكن حين بدأ هذا «الغُول» في تحويل حياتهم لجحيم، دقّت نواقيس الرعب بداخلها، وخرج «غُولها» الشخصي من مكمنه في غياهب الذاكرة. ليومين متتاليين لم تفعل شيئًا سوى الجلوس صامتة في أحد الأركان، تدخن سجائرها وتبحث بعيون «حدأة» فيمن حولها لتنقض عليه وتنشب مخالبها الحادة في قلبه وتمزق كبده. كانت تعرف-عن سابق تجربة- أنه لابد وأن يكون أحد المقربين. هؤلاء الذين نأمنهم على أنفسنا وفلذات أكبادنا ولا نظن بهم سوء. صارت عصبية وتدخن طوال الوقت.

تلوم نفسها عمّا حدث، وترفض أي كلمات مواساة أو تشكيك في أن ما يجول بخاطرها ربما لم يحدث، وأنه لا رابط بين «غُولها» و«غُول» ابنتها. لكن «غُولها» الذي بُعث من قبره بعد سنوات طويلة من الرمس، لم يترك لها فرصة لتصديق ذلك. حتى أنها أنشبت أظافرها في وجه زوجها وأخبرته أنه ليس مهتما ويهوّن من الحقيقة، لأن الصغيرة ليست من صلبه. الأمر الذي بقى معلقًا في الهواء ولم تستطع التراجع عنه ولم يقدر هو على تجاوزه. رافقت الطفلة كظلها، كانت مصرة أن

تعرف من «هو». فهي لن تتركه يفلت بدون عقاب، يكفيها أنها لم تخبر أحدًا عما حدث لها منذ ثلاثين سنة وأفْلَتَ «الغُول» القديم بفعلته.

أرهقت نفسها بالبحث عن كل «مذكّر» يقع في دائرة ابنتها، راقبت الجميع وتشككت في الكل، وضعت طفلتها في كرة بلّورية وأغلقتها عليها. كانت تبكي كل ليلة وهي جالسة في الركن أمام سرير طفلتها لأنها فشلت في أن تحميها مما سبق وأن تعرضت هي له. يتأكد لها ما رمته أمها -منذ سنوات بعيدة- في وجهها، لحظة غضب: أنتِ فاشلة وخائبة ولم ولن تنجحي في شيءٍ أبدًا. أمها كانت على حق، فحين تفشل في حماية طفلك من اعتداء جنسي، تصبح الوظيفة المحترمة والمركز الاجتماعي العالي والعلاقة الزوجية الرائعة وقائمتك من الانجازات التي تفخر بها ويحسدك الناس عليها ويتهامسون من خلفك «كيف استطعت أن تحققها؟»، صفرًا كبيرًا.. يأكل كل شيء، ما عدا الخيبة والفشل والاحساس بالهزيمة.

حاول زوجها انتشالها من هوة الاكتئاب، داوم على إقناعها أنه لا دليل لما يأكلها ليل نهار. قاتل كي يرسل «غُولها» المحرر إلى حيث كان. حدّثها عن كونه فخورًا بها وأن شكوكها التي لا دليل عليها تؤكد كونها أمًا ناجحة لم تترك تفصيلة عرضية دون أن تحاول سبر غورها. أذعنت قليلا لما يقول، لا لأنها فشلت في التوصل لشيء ولا دليل على ظنونها.. ولكن لأن قلب

الأم كان يريد أن يصدّق في أن ابنتها الصغيرة لم تتعرض هي الأخرى لهذه التجربة البشعة التي تترك في الروح فجوة لا تلتئم.

بدأت في التعامل مع «غُول» صغيرتها على أنه هارب من أحد الكوابيس ولا يمت لـ «غُولها» بصلة. لكنها لم تدفن الأمر بعيدًا، تركته قريبًا من السطح كي تظل يقظة لما قد يحدث. وقد كان..

بعد شهرين، تصادف وعادت مبكرة للمنزل بعدما أُلغيَ اجتماع عمل لسبب طارئ. دخلت بيتها وهي تتعجب من الهدوء الذي يغلّفه. ظنت للحظة أن «حبيبها» خرج هو والصغيرة، فلم تهتم. لكن حين اقتربت من باب غرفتها، تسمرت. لم تكن يده التي تتحسس جسدها الصغير مطموس المعالم هي الصاعقة التي أطاحت بعقلها، لكن ما قتلها كان نظرة الاستمتاع التي تعرفها جيدًا وتطلّ الآن من عينيه. حب عمرها الذي افترقت عنه لفترة طويلة، تزوجت فيها غيره ورُزقت بابنتها، ثم عادا واجتمعا.. يتحسس جسد طفلتها الصغيرة باستمتاع بالغ. الرجل الذي يعرف خريطة جسدها ولم تختبر قبله رعشة الإرجاز ولم تتأوه إلا في حضرته.. يعتدي على ابنتها الطفلة. زوجها الحبيب هو «غُول» ابنتها.

لا تدري من أين أتت بهذا الهدوء وكيف غادرت البيت دون جلبة، كل ما كان في بالها هو أن ترفع عن نفسها «الخيبة» التي وصمتها بها أمها قديما وها هي تتجسد

اليوم. قررت ألا تترك هذا الغُول يفلت -هو الآخر- بفعلته. أجرت مكالماتها وطلبت من إحدى أخواتها أن تتصل بالبيت وتذهب لتأخذ الطفلة فلديها هي وحبيبها مناسبة تستحق الاحتفال.

عادت للبيت بعدما صارت الطفلة في أمان. دفنت بداخلها كل ما يعتمل بها ووضعت قناع العادية وأعدت عشاءًا يليق بما تنتوي فعله. جلسا متقابلين يثرثران بحميمية مألوفة ويضحكان، تاركةً إياه يداعب جسدها دون أن تبدو على وجهها علامات الاشمئزاز والرغبة في القيء.

بعد ساعتين كانت تجلس على المقعد الخشبي الصغير منهمكةً في التقطيع. وكلما تمكنت من إخلاء العظم من قطعة لحم، نظرت لرأسه الموضوعة على الطاولة أمامها وأخبرته: لديك كل الحق يا عزيزي، أنا لست فاشلة كما ادّعت أمي، أعتقد أنها -الآن- فخورة بي.

تكوُّر

الأمر لم يعد مُجرد خوف مرضي ورغبة شديدة في الاختباء، تجعلني أتكوّر على نفسي في وضع الجنين – أثناء النوم- وكأني محميّة بداخل أحدهم. الأمر زاد عن الحد، فكلما انتابتني رعدة وتدفق الأدرينالين في دمي، هرعت مسرعة لأرفع السجادة باحثةً عن المقبض الذي سيفتح لي بطن الأرض. أمد قدمي لأتحسس درجات السلم الصغير، ثم أهبط مُغلِقةً الباب فوقي. كاتمةً أنفاسي في هذا السرداب الصغير، المربع الحجم. أظل هناك، ساعة، عشرة.. وربما أيام، حيث السكون والوحدة والظلام والاختباء بالداخِل. حتى يزول الخوف وأتمكن من دفع الباب الصغير فوق رأسي وأخرج، لأعيد ترتيب السجادة فوقه. لا تكرهيني يا ابنتي، الأمر زاد. في البداية، حين عثرت على هذا السرداب ولجأتُ إليه هربًا من بطش أبيكِ، لم أكن أطيق الجلوس فيه أكثر من عشر دقائق. الآن.. صار ملجأي الوحيد، فاغفري لي.

بانتحاري يا حبيبتي أحميكِ من أن ينعتك الناس بـ «ابنة المجنونة». تخيّلي حفلة عيد ميلادك الثالث عشر، وأنتِ أميرة صغيرة تتوسطين أصحابك.

فجأة، تضيء السماء بشرارات الألعاب النارية التي جاء بها صديقٌ لكِ، فتجري أمك لترفع طرف سجادة الصالة وتختفي في باطن الأرض. ستزفك حفنة من المراهقين حتى باب الفصل في اليوم التالي، لأن لكِ أُمًا مجنونة، تلتجئ لسرداب كلما تدفقت دفعة من الأدرينالين في جسدها. أنا أنهي حياتي الآن من أجلك،

فلا تغضبي مني حين تباغتك دماء الحيض للمرة الأولى ولا تجدين من تخبرينه. أنا أُحبك وأريد أن أحميكِ. ولكني لا أجد الراحة ولا أستكين إلا وأنا بالداخل. داخل الأرض، حيث الظلام والوَحشة والعزلة الاختيارية والانفصال عن البشر. أنا أُحبك أكثر من أي شيء وأي أحد.

أكتب لكِ هذه الرسالة قبل أن أهبط لقبوي الذي سيصيرُ قبري عمّا قليل. أنتِ آخر من فكّرت فيه، بل أنتِ أول من قررت أن أحميه بانتحاري. سأُخبئك بداخلي كي لا تبحثي لنفسك -ذات يومٍ- عن قبوٍ تتكورين فيه. سآخذك معي كي يطمئن قلبي عليكِ.. فقط حين تقرأين هذه الرسالة -ولا أعرف كيف وأنتِ سترحلين الآن معي، مضغةٌ صغيرة، قطعة لحم متشبثة بأوردتي ومحميةً في داخلي- اعرفي أني حسمتُ أمري لأجلكِ، وخوفًا عليكِ.. فسامحيني.

النبوءة

شق نباحهم سكون الليل. لم يكن أحد يسير في الشارع كي نعتقد أنهم يهاجمونه. -اللصوص مكثوا في بيوتهم خوفًا من هؤلاء الذين أُصيبوا بتجولِ لا إراديّ بعدما قرروا كسر حظر التجول الذي فرضته عليهم الحكومة-. ظل نباحهم يعلو ويعلو إلى أن أسكتهم -فجأة- صوت الرصاص المندفع من رشاش آليّ. وحدها من لم تتوقف وظلت تموء في ركن مدخل البناية، حيث وضعت القطة الحبلى حملها منذ يومين. كانت تشعر بالخوف وتنادي على أمها كي تحتمي بها. كان صوت الرصاص يعلو وينخفض، يبتعد ويقترب. والكلاب ما بين صمتٍ ونباحٍ على استحياء. لكن الرصاص لم يصب أيًا منهم كما سبق وأن أصاب آخر ينتمي إليهم منذ خمس وعشرين سنة، حين شق نباحه سكون الليل في الشارع المعتم، فصوّب خفير الدرك بندقيته نحوه وأرداه قتيلا. ليستقيظ الجميع على بكاء الطفل الذي كان يُصادقه وهو يشق سكون الساعات الأولى من الصباح. لشهورٍ طويلة لم يتعاف الصغير من مقتل صديقه. ولسنواتٍ طويلة كان الحيّ بأكمله يذكر «حَمَاصة» الذي ظن الخفراء لصوصًا، فنبح عليهم. فأردوه قتيلا.

صوت تدافع الرصاص كان يدل على المعركة التي تبدو قريبة من بيتها. لكن صوت شيخ الجامع الذي كان يؤم الناس لصلاة الفجر كان يواجه صوت الرصاص الذي يبدو أنه يندفع في محيط مسجده. كان صوته

قادرًا على دحض صوت الرصاص وعلى كسر سطوته وتقليل الرعب الذي يبثه في نفوس المصلّين وساكني الحيّ. لكن خشوع صوته لم ينزع الرعب من قلبها. نهضت من سريرها وخرجت نحو الشرفة لتراقب المعركة الدائرة قريبًا منهم. لكن لا شيء كان واضحًا سوى صوت الرصاص وثبات صوت الإمام.

يسكت صوت الرصاص فجأة كما بدأ فجأة. بعد فترة، يعود المصلّون من الجوامع، وكأنه لا معركة كانت تدور رحاها في هذه الشوارع منذ قليل. تشعر أنها ستصاب بجنونٍ قاتل. الناس تأقلموا. صار الدم والموت جزءًا لا يتجزأ من حياتهم اليومية. وصار صوت الرصاص مقطوعة موسيقية تُكمل الصورة.

لا تنام. بالرغم من أنّ أسرتها الصغيرة لا زالت مكتملة وآمنة. لا أحد منهم -الآن- خارج البيت، معرض لرصاصةٍ طائشة أو طعنة سارق بالإكراه أو للوقوف في كمينٍ للجيش يؤهله لخوض تجربة المحاكمات العسكرية. لكنّها وبرغم ذلك، لا تنام. تجلس على الأريكة التي تجاور باب المنزل، ولا تتحرك. تُشاهد كل من يخرج أو يدخل وتوصد خلفهم الباب.

لم تر الشارع منذ أكثر من شهريَن. لم تقدّم واجب العزاء في قريبٍ لهم سقط صريع رصاصة قنّاص وهو يحاول إنقاذ زميلٍ له، سبق وأن أصابه ذات القنّاص، فماتا سويًا في عرض الطريق أمام أعين الناس وفي قلب السوق الذي يعملون فيه. تعرف أسماء الضحايا

وعددهم. لا تتعجب من تساقطهم بهذه الكثرة وتلك العشوائية التي حصدتهم ولم تفرّق بينهم. فهي حين استيقظت في ذلك اليوم وعرفت عن بدء مراسم القتل غير المبرر للناس والمارة، وقع في قلبها ما سبق وأن أُخبِرَت به منذ زمنٍ لا بالقريب ولا بالبعيد، وظنّته حينها مجرد هلاوس وخيالات.

«عما قريب، ستزور «المَنيَة» البلدة، ولن تترك بيتًا دون أن تزوره.

ستأتي -على غير العادة- ذات صباح. لن تجوس بين الأطفال أو العجائز، بل ستتجه رأسًا نحو قلوب الشباب والرجال، لتقتلعها وتتركهم في عَرَض الطريق وتمضي بحثًا عن غيرهم.

ستحصدهم سويًا في مكانٍ واحد أو ربما مكانَين -على أبعد تقدير-، لكن صور ضحاياها ستتدلي من فوق أسطح البنايات في كل أنحاء البلدة، مذيّلةً بأسماء أصحابِها.

سترابط في البلدة حتى تتم ما أتت من أجله. ستتخفّى عن عيون الناس، وإن استلزمها الأمر أن تسكن قليلًا حتى يطمئنوا أنها غادرت.. ستفعل. لن تغادر قبل أن تتم ما أتت من أجله.

لن تترك بيتًا دون أن تزوره، ولن تترك بناية لن يتدلى منها صورة لفقيد».

لذلك حين علمت عن عدد الضحايا الذين بدأوا في السقوط بداية هذا اليوم، أيقنت أن «المَنيَّة» قد حطّت رحلها في البلد، وأن النبوءة آخذة في التحقق. ولأنها لم تخبر أحدًا بأمر النبوءة، لم يتفهموا الرُعب غير المبرر الذي أصابها. وكيف أنها لم تستطع تجاوز الأمر ولا حتى التأقلم معه -بعد فترة- كما فعلوا، وهاجموها واتهموها بقلة الإيمان.

ولأنها وحدها من حملت عبء المعرفة ورفضت أن تلعن غيرها بها وتلقيها عليه. تراها الآن لاتزال جالسة على الأريكة التي تجاور باب البيت طوال الوقت، ولا تنام. -رغم أن هذه الأحداث الدموية التي سقط فيها خمسون ضحية، مرّ عليها سنوات وسنوات، وقُدّم القتلة وقادتهم للمحاكمة العادلة، وارتاح أولياء الدم بأخذ قصاص أبنائهم- . فقط لأنها تعلم أن النبوءة لم تتحقق كاملة، وأن «المَنيّة» لم تترك بصمتها على عتبة كل بيت في البلدة الصغيرة كما وعدت. وأنها لابد متخفّية في مكان ما بعيدًا عن العيون حتى تتم ما أتت ما جاءت من أجله.

على رؤوسهم الطير

تنظر لي بعيون يومض منها الشرر وتصرخ في:

-أنا لا أترك حقي.

من صراخها المفاجئ. تتسع عيوني وأهز رأسي -دون أن يدفعني الفضول وراء المعنى- علّها تصمت. لكنها تعود للصراخ في:

- أنا ابنة أبي، لا يُمكنني أن أترك حقي.. إما قاتلة أو مقتولة.

يسألني الشاب المُكلف بجمع الأُجرة من الزكّاب:

- لماذا توجِه كلامها لكِ؟!.

أهز كتفاي أني لا أعلم. تجذبني من ذراعي «أمّي لم تجمعني من بِضع الرجال. أنا ابنة أبي». لا أنبس ببنت شفة أربت على يدها موافِقة. تدفع يدي بعيدًا وهي تزأر بأن ثأرها مع «عمارة» لن تتركُه. تنظر فيما خلفي وتُحدّث غائبًا لا نعرفُه:

- أنا صَعيدية، تشرّب جسدي من جسد زوجي واختلط عرقه بعرقي ولَبَنه بعسيلتي. لا يترُك الصعايدة ثأرهم. يُخبرها أحدهم بعدما نفد صبره:

- لا تتركيه. فقط توقّفي عن الكلام.. الله يهديكي يا سِت.

تصرُخ: عنّه ما هَداني.

يُتمتم بالاستغفار والحوقلة، فتُضيّق عيونها ويتحول صراخها لفحيح:

- أنت لا شك تقرُب لـ «عمارة».

ترتعد جَنَباتي وأهز رأسي وأنا أربُت على روحي: - لن أكونها يومًا. لن أكونها. سأُصاب بالعته أو خرف الشيخوخة. وسيحبسني أولادي في غرفة ضيقة بعيدة بلا نافذة كي لا أصرخ على المارة. سأبكي كطفلٍ صغير حين تنهرني المرأة المُكلفة برعايتي لأني بللت ثيابي. سأسب أمها وأخمش وجهها بأظافري. ستتركني وترحل ككثيراتِ غيرها. سيُهددني أبنائي بوضعي في دار رعاية. سأتوسل إليهم بقبر أبيهم ألا يفعلوا.. وسيفعلوا. في ساعات صفوي النادرة، سأظل أردد على مسامِع الحوائط حِكايات تليق بجدة حكيمة لم تفقد وقارها ولم تته في غياهب النِسيان. سألعن أحفادي كلمَا زاروني وتمللوا من سؤالي لهم: من أنتم؟!. لكنيَ لن أكونها يومًا. لن أهيم على وجهي بحثًا عن ثأرٍ وهميّ. لن أسب الغرباء وأشكك في شرف أمهاتهن وأكيل اللعن للسماء التي تتخلى عن دعمي. لن أكونها يومًا. لن أكونها.

أنتبه على صراخي وأنا أُخبر السائق أنه لابُد من «عمارة». وأن أخي هو من أوَرثه تِلك الندبة التي تشق خدَّه الأيمن. يضرب الزكّاب كفًا بكف ويكيلون لي السخرية. ينظُر لي شَبحها -الذي يتلاشى- بعينين يكاد ضوؤهما يخبو، فتسري الرعشة في أوصالي وأصرخ في السائق، «أنا ابنة أبي، لن أترك ثأري.. إما قاتلة أو مقتولة». يبتسمُ الطيف الذي يختفي وهو يشد على

ذراعي، بينما يقف الطير على رأس الجميع.. فأنشغل به وأهِمُ باصطياده.

نوبة سعال

نظراتهم الشبقة تتغذى على جسدها البض كل صباح. تسأل نفسها دائمًا كيف يُمكن لعيونهم التي لازالت تحمل الوسن وبقايا «الغَمَص» أن تتطاير منها كل هذه الشهوانية.

في البدء كانت متحفزة، تودّ أن تقتلع عيونهم وتُطعمها للكلاب الضالة. فيما بعد صارت لا تكترث. كل ما يهمها حين تخرج في السابعة والنصف وخمس دقائق من بيتها، أن تصل لبيت مخدوميها في تمام التاسعة. تحفظ طريقها من المنزل وحتى محطة المترو. توقفت منذ أمد عن ركوب «التوك توك» توفيرًا للجنيه والنصف وهربًا بجسدها من المواقعة في المرآة. تقطع المسافة في إحدى عشر دقيقة، ويستغرق المترو ساعة وخمس دقائق. تصل قبل التاسعة بتسع دقائق، تشتري الجرائد اليومية وتصعد السلم -المصعد صار ممنوعا عليها منذ فترة- لتدق الجرس في تمام التاسعة. تلقي بتحية الصباح على مخدومتها وتناولها الجرائد وتدخل كالمسرنمة إلى الداخل. تجمع أطباق الفطور من المائدة وتبدأ في جليها. في تمام العاشرة تخرج بفنجان القهوة للسيدة في الصالة. وتنتقل هي بين غُرف المنزل لتبدأ في التنظيف اليومي. تصر السيدة على خروج كل المفروشات للشرفة كي «تتشمّس». رغم أن البنايات الشاهقة المجاورة لا تسمح للشمس أن تقوم بعملها. لكنها تفعل ما تؤمر به بآلية مطلقة. في الثانية عشرة تدخل السيدة المطبخ كي تبدأ في إعداد الطعام. لا

يُسمح لها بأن تمد يدها وتساعدها. «أنتِ هنا من أجل النظافة وترتيب البيت وجلي الأطباق».

تبدأ هي في تنظيف الحمّام الكبير وغسله بالمنظفات القوية. تجلس على ركبتيها كي «تُفَرِّش» المرحاض. يطل في رأسها صورة ضبابية لأول مرة فعلت فيها ذلك، لكنها تنفضها بعيدًا وتعود للفرك. تنتهي من الحمّام الكبير وتتجه للآخر الصغير ثم تذهب للشرفة لجمع الوسائد والأغطية وفرشها على الأَسِرّة. في الثانية والنصف تخرج السيدة من المطبخ لتدخل هي. السيدة طبّاخة محترفة. لها «نَفَس» حلو وتُتقن الطهي وتمارسه عن حب. لكنها تترك خلفها تلالًا من الصحون والأدوات المتسخة. تبدأ في الجلي ومن ثَمَ تمسح الأرضية وتذهب لتبدّل ملابسها وتستأذن في الرحيل. في تمام الثالثة والنصف وتسع دقائق تقف على رصيف المترو في انتظار القطار. تصل البيت قبيل الخامسة بدقائق. تدخل للمطبخ وتبدأ في إعداد الطعام أو إعادة تسخين ما منحته لها السيدة من طعام بائت لديها. تسأل الولد عن المدرسة وعن المذاكرة. تهز رأسها وتشرد وهو يغمغم بكلام يبدو للسامع أنه حديث بين صبي وأمه. لم يعد يسأل عن الأب الذي قيل ليه أنه سافر منذ زمن لبلد عربي وتوقفت أخباره فجأة. أهل الحارة ظلوا لفترة يرددون أنه تزوج من أخت الكفيل الدميمة، كي يضمن تجديد الإقامة.. ثم ماتت سيرته وتوقفوا عن مضغها. هي وحدها تعلم أنه هجرها لأنه ملّ تحمّل المسئولية.

وأن قدماه لم تطأ أرضًا عربية ولا يحزنون. أولاد الحلال دلّوها على الخدمة في البيوت، ورشحوا اسمها للسيدة التي طلبت منها شهادة صحية تثبت أنها خالية من الأمراض. فآخر ما تريده مخدومة أن ينتقل لبيتها الجميل في الحي الراقي مرض تحمله خادمة. السيدة ودودة بالرغم من صرامتها. لا تتهاون في النظافة أو بوادر المرض. في بداية الشتاء أصرّت عليها أن تأخذ لقاح الأنفلوانزا، وإن وجدت جرحًا في يدها تمنعها من العمل. السيدة مهووسة بالنظافة وتخشى على صحة أبنائها، لديها تصوّر أن كل الفقراء لا بد وأنهم يحملون أطنانًا من الأمراض، تقطر منهم أينما ساروا ويتركونها أينما وُجِدوا.

في المرة الأولى التي سعلت فيها ذلك السعال الجاف المؤلم جدًا، قامت بغلي ملعقة من الينسون مع أخرى من زنجبيل وعرقسوس. وظلّت تدعو ألا تفاجئها نوبة السعال وهي في بيت مخدومتها. لكن النوبة كشفت عن نفسها ما أن خطت أولى خطواتها داخل المنزل. الأمر الذي جعل السيدة تنتفض وتطلب منها المغادرة والعودة حين تُتم الشفاء. لكنها تراجعت، فالمنزل في حالة فوضى والأواني تكاد تلامس سقف المطبخ في انتظار جليها بعد حفل الأمس. وأمام حاجتها إليها، قررت أن تبقيها. لكنها عادت وفي يديها كِمَامَتين.. وأمرتها أن تغطّي أنفها وفمها الذي يسعل المرض. ظلّت ترتدي الكِمَامات طيلة أسبوعين، حتى بعد أن توقف السعال.

فالسيدة كانت تخشى من أن يكون الفيروس لازال عالقًا بشُعبها الهوائية. وهي لم تعترض. فمن حق السيدة أن تفعل ما بوسعها كي تُحصّن بيتها وأطفالها.

كانت السيدة تتحدث في الهاتف حين أصغت السمع إلى وَصلة السعال المتصل، فهرعت نحو الحمام مذعورة.. لتتسمّر في مكانها وهي ترى بقعة دم طازجة تغطي فم الخادمة والكِمامة. حالة الهيستريا التي انتابت السيدة، كانت مبررة. خادمة متكورة على نفسها فوق الأرض، تسعل بشدة والدماء تغطّي فمها وتتناثر حولها على السيراميك.

في المترو، لم تجد من تنهض لتُجلسها، فافترشت الأرض وأسندت ظهرها للباب الآخر المُغلق. لم تكن تذكر كيف خرجت من بيت مخدومتها وسارت في الشارع ووصلت حتى رصيف المترو. كانت تقبض يديها على ما أعطته لها السيدة من نقود وهي تأمرها بعدم العودة أبدًا. ظلت تبكي وتُخبرها أنها ليست مصابة بمرض خطير، وأن بلعومها مجروح بسبب مشاجرة افتعلتها بالأمس مع جارة لها. لكن السيدة كانت في حالة ذعر حقيقية. شرودها منعها من متابعة الجلبة التي أحدثها بعض الصبية على رصيف المترو حين توقف القطار في المحطة فترة أطول من المعتاد. الصبية الذين كانوا يسبّون بعضهم البعض بألفاظ فاحشة، ويركضون على الرصيف ناشرين حالة من الفوضى ونوعا من الذعر في قلوب الفتيات، كانوا يحملون على ظهورهم حقائب

المدرسة التي تسللوا منها قبل انتهاء يومهم الدراسي. وحين أطلق سائق القطار صافرة التحذير قبل إغلاق الأبواب، اندفع أحد الأشقياء إلى عربة السيدات. وظل يسب أصحابه على الرصيف، ليسبّوا هم أمّه. كان يشير لهم بأصابعه حين أخرج هاتفه ليُحدثهم ويُخبرهم أنه سينتظرهم على رصيف المحطة التالية. الصمت الذي ساد عربة السيدات والصبي يتحدث في الهاتف ويسب -بمرح- صديقه على الطرف الآخر، سمح لها أن تفيق من شرودها لتسمع صوت الشقي ومكالمته البذيئة. فجأة توقفت الدموع وضاقت عيناها وهبّت واقفة من مكانها لتُمسك بالحقيبة التي على ظهره وهي تصرخ فيه: «مالذي تفعله هنا؟ لماذا لست في مدرستك؟».

حالة الهيستريا التي أصابتها وهي تهاجم الصبيّ وتُمسك بخناقه فجّرت في المشاهِدات خليطًا من الدهشة والذعر.

ظلّت تصرخ في وجهه وهي تضربه: «لقد طُردت اليوم من العمل. طُردت من الخدمة في البيوت. الخدمة التي امتهنتها كي تذهب للمدرسة وتصير إنسانًا ذا قيمة. طُردت وأنت تتسكع في الشوارع تسب أم أصدقائك ويسبون أمك». إلى أن استفاق الصبي من الصدمة ودفع يديها عنه «من أنتِ. أنا لا أعرفك. يا امرأة يا مجنونة».. تابعًا ما قال بوصلة بذيئة من السباب طالت شرفها، فأجبرت الراكبات على فصلهما عن بعضهما البعض. كانت تبكي في هيستريا وتلطم

وجهها وتخبرهم أنها تشقى من أجل أن تُربيه بعد أن اختفى أباه وها هو يُخيّب أملها. الصبي الذي ظل يُنكر معرفته بها، كان على وجهه علامات ذعر حقيقية تشي بأنه يرى «عفريت» لا امرأة مخبولة تدّعي أنها أمه. حين توقف القطار في أول محطة، هرع الصبي للمغادرة فيما تسمّرت هي في مكانها تردد ببكاءٍ مكتوم أنها طُردت اليوم من العمل في الخدمة في البيوت والراكبات يربتن على كتفها، يحوقلن وهن يقلبن شفاههن شفقةً عليها.

على رصيف المحطة، كان الصبي لا يزال واقفًا يُشير لها بيديه ويُخرج لسانه ويردد بصوتٍ مرتفع: يا امرأة يا مجنونة.

النشوة

كانت نظراته تجمّد الدم في عروقي. التقاء عيوننا كان كفيلًا ببث الرعب في قلبي والأدرينالين في جسدي. كانت أمي تنهرني كلما رأت رعبي باديًا على محياي. تُخبرني أنه يستحق معاملة أفضل مما أمنحها له وأنه لا يصح ما أفعله. كنت أنا الوحيدة التي ترى خلف حدقتيه، شخص مُخيف. كل من في الحيّ كانوا يعاملونه بلطف ومحبة حقيقية.. إلا أنا. بالنسبة لهم، هو لايزال الصبيّ الغض الذي فقدوه منذ عشر سنوات، كان خلالها حبيس قبوٍ قذر وضعه فيه ذلك الساديّ الذي خطفه. ونسوه تماما حتى قرر مجلس المدينة إزالة البيت القبيح المهجور، الذي يقبع في آخر الحيّ وكنّا نخشى المرور بجواره.

لم يحكِ لأحد تفاصيل ما مرّ به. لكنهم استنتجوها من ملامح وجهه والآثار التي وَسمت كل شبر في جسده. لم يجرؤ أحدنا أن يسأله لماذا لم يهرب بعد أن مات خاطفه قبل شهر من العثور عليه. وفي محاولة منهم لاحتوائه والتكفير عن أنه كان في محيطهم طوال هذه السنوات دون أن يشعروا به أو يكتشفوا مكانه، فتحوا له أبواب بيوتهم. كان قليل الكلام، لكنه أخبر الشرطة أن العجوز مات بأزمة قلبية داهمته وهو يضربه كما كان يفعل كل مساء. لم يسأل عن أبويه، لكن إحداهن تطوعت وأخبرته أن أمّه ماتت بفعل الحسرة عليه بعد عام من اختفائه. وأن أباه لحق بها بعد عامين من رحيلها. منحوه غرفة صغيرة فوق أسطح إحدى

العمارات. وكانت الأمهات يرسلن له الطعام بصورة يومية. لم يكن يعاني من «رهاب الخارج»، لكنه أيضًا لم يكن يغادر غرفته إلا نادرًا. لا أعرف هل كان خوفي ما دفعني للاقتراب منه أم أنه هو من ألقى عليّ بشباكه؟!. في المرة الأولى التي اتجهت فيها صوب غرفته، كان قلبي يدق بشدة هيأت لي أنه سينفجر. لكني بالرغم من ذلك واصلت تقدمي وطرقت بابه. ومض يومها في عينيه بريق أكاد أجزم أنه تهكّم، فأنا ذهبت إليه كما كان يخطط. لكن البريق اختفى في ثوان، وحين قررت أن أسلم ساقيّ للرياح، كنت قد خطوت إلى الداخل وأغلقت الباب خلفي.

خلال ساعة لم نتحدث ولا كلمة واحدة. وحين هممت بالانصراف، طلب مني أن أبقى قليلًا.. ففعلت. لشهور، كنت أطرق بابه.. يفتح لي فأدخل لأجلس بجواره دون أن ننبس ببنت شفة. حتى تجرأت ذات مرة ومددت يدي نحو ندبة تغطّي ذراعه، فلم يرفع رأسه. وحين ضممته إلى صدري، أغمض عينيه واستكان. من بعدها، صار احتضاني له واستكانته فوق صدري طقسًا مقدّسًا. لكنه لم يذب الجليد ولم يستطع أن يجعلنا نمارس الحكي. لـسِتَّة شهور لم أسمع صوته، إلا حين أخبره أني راحلة... فيطلب مني البقاء قليلًا، فأعده أن أعود غدًا، فيومىء برأسه وينهض ليغلق الباب خلفي. زيارتي له واستكانته في حضني لم تبدد رعبي منه. كنت

كالمجذوبة. أخشى النار وأتجه إليها بكامل إرادتي. هل أنا مازوخية؟ أم أن لتدفق الأدرينالين في الجسد، نشوة كنشوة المخدرات تمنع متعاطيها عن التوقف؟!. هل كان ما نمارسه هو فعل الحب، أم أنه مجرد رغبة جسدية أطفأناها؟. كنت أسأل نفسي في كل مرة نفعل فيها ذلك، لكني لم أحظ بإجابة إلا حين بدأ في الحكي.

لم ينس شيئًا كما يظنون. طيلة عشر سنوات كان يعرف أنه لم يبعد كثيرًا عن البيت. العجوز كان يُحسن إليه في غير ساعات الضرب والحرق والتلذذ بالألم. كان مريضًا لا يسكّن ألمه سوى التلذذ بالألم. وكان في إيلام الآخرين مخدر قوي. كان يحدثه دومًا عن لذة الألم. لذلك قرر أن يُجربه. بعد أشهر من التخطيط، غافل العجوز وأثناء نومه، قيّد يديه وقدميه. أذاقه كل صنوف العذاب والألم. ظل يضحك وهو يخبرني عن وجه العجوز الذي كان يبكي من فرط الوجع، حين كان الصبيّ يجرب لذة النشوة للمرة الأولى. التفت لي وأخبرني أن التلذذ بآلام الغير، تمنحه نشوة لا يمنحها له الجنس. فأُسقط في يدي، مالذي سيفعله بي الآن؟!. لا أحد يعلم عن علاقتي به ولا عن زياراتي له. لن يشك به أحد. يمكنه أن يحبسني في غرفته لعشر سنوات دون أن يشعر بي أحد أو يعلم مكاني. وكأنه قرأ أفكاري، ربت على كتفي وأخبرني أنه لن يفعل. فإن كان تعلّم شيئًا خلال هذه السنوات، فهو ألا يربّي «وَحشًا» بداخل

أحدهم، فهذا «الوحش» قادر على أن يفعل به ما فعله هو بالعجوز. هو فقط يحكي لي عمّا يفتقده منذ سقط العجوز صريع أزمة قلبية وهو يعذبه بالخنق.

حينها تأكدت أن ما كنا نفعله لم يكن فعل حب.. بل محض رغبة. وأن ما دفعني نحوه، هي تلك النظرة التي رأيتها خلف حدقتيه في كل مرة تصادف فيها أن التقينا وجمدت الدم في عروقي. دفعتني مازوخيتي لأطرق بابه، ودفعته ساديته لنصب شِباكَه حولي. فلديه ما أريد ولديّ ما يسعى إليه ويفتقده.

عابرو نافذة

لا أدري تحديدًا متى بدَأت. أتخيلها تفعل ذلك منذ الأبد. تستقيظ قبل الفجر بفترة كافية. تعد لهم الطعام. تنتهي منه وتذهب للصلاة. تعود لتفتح النافذة وتتركه لهم. حتى إذا جاءوا في البكور وجدوه في الانتظار. أشفقت عليها مرة وأخبرتها أن تفعل ذلك في الصباح. فلا بأس إن جاءوا ووقفوا في انتظاره. لكنها أسكتتني بنظرة لوم وهي تخبرني: إن جاءوا ولم يجدوه، سيرحلوا للبحث عن غيره في صناديق القمامة وعلى أرصفة الأسواق. لا أدري كيف اكتشفوه في المرة الأولى. لكنّ مَنْ فعل، أخبر الباقيين. فصاروا يأتون في جماعات. في البدء كانوا يتشككون في كونه «شَرَك». يقتربون في حذر. يهربون إذا ما رأوا ظلّ أحدنا أو سمعوا صوتًا. ينظرون لبعضهم البعض على أمل أن تغلّف الشجاعة أحدهم فيتقدم. لكنهم بعد فترة ما، آلفوه. تيقنوا أن هذا الطعام يُوضع خصيصًا من أجلهم فصاروا لا يتأخرون ولا يعرجون إلى مكانٍ غيره. في المقابل، صارت تمنَحهم وجبة أخرى مسائية. تَضَع الطعام على النافذة وتمضي، فيأتون لاحقًا من أجله. يفعلون ذلك وكأن بينهما عقدًا ما، كِلا الطرفين ملتزمٌ به. كلما أخبرتها أن لا منفعة -حقيقية- تعود عليها مما تفعل. تهز كتفيها لا مبالية، وكأن ما تفعله واجبٌ، لا تطوع منها. حين اضطرت ذات مرة للغياب، أوصتني ألا أتوقف عن إعداد الطعام ووضعه على النافذة. فعلت ذلك حِفظًا للوصية. وحين جاء المساء وهممت بوضع

الوجبة الأخرى، صعقت لأنهم لم يقربوا السابقة، رغم أني سمعت جلبتهم في الصباح. كنت قد فعلت كل ما تفعل وأعددت الطعام و وضعته بطريقتها، بيدَ أنهم تركوه ولم يقتربوا منه. ليومين متتالين، كنت أسمع جلبتهم في الصباح، ثم أجد الطعام كما هو في المساء. حين عادت، لم أخبرها بما حدث.

استيقَظَت قبل الفجر، أعدَّتْ لهم الطعام. فرغت من الصلاة ووضعته على النافذة. في الصباح كان الطعام -على غير الأيام الماضية- قد فَنى عن بكرة أبيه. في الظهيرة، قررتْ أن تصنع لهم وجبة إضافية. وحين فتَحَت النافذة لتضعها لهم. فوجئت أنهم قد تجمّعوا في انتظارها. ودون أي تردد أو خوف من الوقوع في «الشَرَك»، دخلوا البيت. يحركون أجنحتهم الصغيرة بشدة ويجذبون بمناقيرهم الحادة أطراف ملابسها وتعتريهم نوبة غضب طفوليّ جامح.

عرضٌ ليليَ

أدفن رأسي تحت الوسادة. لكنّ أنّاتها تصلني رغم ذلك. شهقاتها المتلاحقة والتأوهات تحاصر بقعتي الصغيرة التي أتكور فيها. أقترب أكثر من نفسي. أُغلق ساقايّ وأُقرّب ركبتايّ من ذقني وأُحكم وضع الوسادة فوق أذني. العرض الليلي قائم على قدمٍ وساق. لا يصيبهم الحرج أبدًا ولا يكلّون. أعض على شفاهي وأمنع نفسي من أن أقوم في اتجاه غرفتهم لأصرخ فيهم كي يكتفوا من الفضائح الليلية. لكن النعاس يغلبني. أستيقظ قبلهم فأهرع للحمّام. بعد لحظات تدق يد أحدهم على الباب. أفكّر أن أتركهم بالخارج قليلًا.. لكني أتراجع وأتقي الشر. العلامة الحمراء التي تزيّن عنقها كانت أول ما لمَخته منها فشعرت بغصة في حلقي. لكن الشفاه المتورمة كانت تصرخ كي تلفت نظري. كانا يتقيان دائمًا وسمات الوجه. لكنهم هذه الليلة لم يأخذوا حذرهم. تشيح بعينيها بعيدًا عن نظرات الاحتقار التي أوجهها لها. أرتدي ملابسي على عجل وأترك هذا البيت الملعون. أرفع الصاج عن واجهة المحل وأدخل. الوقت لازال مبكرًا جدًا. الزبائن لن تأتي قبل الظهر وأمامي متسع من الوقت كي أفكر في سيناريو الليلة الفائتة وكيف جَرت. يأتي زميلي الذي يقف في «كشك» سجائر على أول الشارع ليسألني: - أفطرتي يا هند؟!. أهز رأسي بالنفي. يضحك ويقول: لابد أن ليلة الأمس كانت صاخبة. لكنه عاد وتراجع عما قال وجاء ليربت على كتفي ويسألني: هل فكّرتي مرة

في دخول الغرفة عليهم لعلهم يتوقفون؟. أتنهد هازئة: أنا تقريبًا معهم في الغرفة، البيت كما تعلم، جُحر فأر. الحيّ بأكمله يسمع صوتهما كل ليلة، ورغم ذلك، لا يتوقفان. لن يتوقفا.

«لكنها السبب».

يسألني مستفهمًا: مالذي يمكنها أن تفعله يا هند؟ أشرد بذهني وأتمتم: الكثير الكثير..

في الوقت الذي كنت أعلّق اليافطة الصغيرة المكتوب عليها «مغلق» على باب المحل وأهم بالذهاب للبيت لاستراحة الغذاء، كنت قد انتهيت من البروفة العاشرة لما سأقوله لها.

- أنا سأرحل عن هذا البيت.

شهقت وخبطت صدرها بيدها. وسألتني أين ستذهبين. لم أرد عليها، ذهبت لغرفتهم وبدأت في لمّ حاجياتي من الدولاب. هرعت خلفي، مالذي تفعلينه أين ستذهبين يا بنت المجنونة؟. التعبيرات الخشبية التي كست وجهي تسببت في إصابتها بحالة من الهيستريا. أجيبي عليّ.. أين ستذهبين؟. هل تعتقدين أني حِمل هذه الفضائح الليلية؟. ما باليد حيلة يا هند، ما باليد حيلة.

حين بَدَأتْ في البكاء، خرجتُ من الغرفة وعدت وبيدي سكينًا كبيرًا. وضعته في يديها وأخبرتها: إذن أوقفي هذا العرض الليليّ. ارحمينا من الفضائح.

النظرة التي علت وجهها شقتني لنصفين. «أتريدين أن أصبح قاتلة؟»، قالت. أخبرتها بتهكم، وهل تُفضّلين أن تكوني مقتولة؟. تركتها تقلّب كلماتي الغامضة في ذهنها وعدت للمحل. لم أبِع قطعة واحدة طيلة اليوم. الشرود الذي انتباني وهمهمتي في الرد كلما سألتني إحداهن عن مقاس أصغر أو أكبر أو لون آخر، كان كفيل بإبعاد الزبائن. في المساء، أغلقت المحل وأنا أُقدّم ساق وأؤخر أخرى. ماذا عساها ستفعل؟ هل ستستخدم السكين حقًا لتردعه؟ أم أنها ستهدده فقط. وضعت سيناريوهات عِدة. لكن ما حدث تلك الليلة كان أبعد ما يكون عن خيالي. حين جاء في آخر الليل، لم أضع الوسادة على رأسي. انتظرت متحفزة أن أسمع شجارًا بينهما أو صرخة مدوية منه. لكن حين بدأ العرض الليلي، جلست في مكاني أبكي وأنا أحسب ما معي من نقود للهرب. لا أعلم متى غفوت، لكني استيقظت على ربتة من يدها وهي تهمس لي بصوتٍ خافت: هند، هند.. هيّا. كانت تحمل حقيبة كبيرة، جمعت فيها أشيائها وأشيائي. أشارت لي أن أرتدي ملابسي دون جلبة. نظرة التصميم في عينيها أعمتني عن الوَسَمات الجديدة التي ظهرت على جسدها. خرجت معها كالمسرنمة، دون سؤال أو استفسار. طوال الطريق الطويل لم تنبس ببنت شفة، ولا أنا.

حين وصلنا أخيرًا لجامِع يستعد لتواشيح الفجر، تنفست الصعداء وأشارت إليّ أن ألحق بها. لم تُصلِّ،

وكيف لها أن تفعل. ظلت تبكي حتى انتهاء الصلاة. ثم تركتني وذهبت لخادِم الجامع. عادت بعد فترة وهي تُخبرني أننا سنظل هنا حتى يطلع النهار. لم أسألها عن أي شيء. تكوّمت في زاوية ونمت. كانت المرة الأولى التي أنام فيها بسكينة. حين أيقظتني بعدها بساعات. نهضت لأرحل معها. لم أشعر بطول الطريق أو ثُقل الحقيبة. على العكس.. كنت أسير بخفّة لم أعهدها في نفسي منذ أن احدودب ظهري وحطّ الهمُّ على منكبي. وحين وصلنا محطة مصر، لم أسألها عن وجهتنا، المهم أننا أخيرًا نرحل. وضعنا أقدامنا في القطار الذي كان يهم بالمغادرة. وحين بدأ القطار في الصراخ وترك الرصيف.. ابتسمت لي ابتسامة غريبة واحتضنتني وهي تُهمهم: لقد نجوتِ من العروض الليلية يا هند.

كان الصمت يُغلفنا حين وضعت يدها في صدرها وأخرجت لفافة ما، وضعتها في يدي وأطبقت عليها وهي تُخبرني، أن بها كل أوراقي وذهبها القليل وقروشنا الأقل. «هذه اللفافة هي كل ما نملك في هذه الحياة. حافظي على أوراقك واقتصدي في قروشك، لا أحد يعلم ما سيجيء به الغيب».

في المحطة التالية التي توقف فيها القطار، قبّلتني ووقفت. هممت بالوقوف فأجلستني وابتسمت ابتسامة باهتة: طُرقنا متوازية لا متقاطعة يا هند. وغادرت القطار. لثوانٍ توقف عقلي عن العمل، حتى إذا استوعبتُ ما قالت، كانت قد غادرت. أخرجت رأسي من

النافذة ورُحت أصرخ عليها: إلى أين؟ هل ستعودين إليه؟. لكن لم يكن لها أثر وكأنها تبخّرت. أسندتُ رأسي وأنا لا أعي شيئًا مما حدث. لماذا لم تتركني أرحل بمفردي إن كانت ستتركني في منتصف الطريق وتعود إليه؟. لم يخرجني من تِيهي سوى صوت «الكمساري» الحانق: يا آنسة، أنتِ تشغلين المقعد الذي يجاورك بالحقيبة. أنزليها في الأرض واسمحي لأحدهم بالجلوس أم تراكِ قطعتِ تذكرتين؟. فتحت اللفافة ومددت له يدي بالتذاكر. فازداد غُبوسه «لم تقطعي غير تذكرة واحدة وتاركة الناس وقوف منذ محطة مصر» لا يصح ذلك. يا «ست» تعالِ اجلسي هنا. هممت أن أُخبره أنّ المقعد المشغول بحقيبتي كان لها وأنها غادرتني حالاً في هذه المحطة، وأن معه تذكرتين. لكن السيدة التي تجلس في المقعد المقابل لي، قلبت شفاها وأخبرته: «ابني يقف في أخر العربة منذ «محطة مصر» لأني ظننت أنها قطعت تذكرة أخرى للمقعد الذي يجاورها». فتحت فمي لأُخبرهم أنها كانت معي وغادرت الآن. لكن صوتي ضاع أمام نظراته الغاضبة وهو يُعيد لي التذكرة الوحيدة التي ناولته إياها.

شهوة الاستسلام

«في كون آخر موازٍ، لابد وأني ملتصقة بك الآن. أحدثك عن المعجزات الصغيرة التي تتحقق، وعن الأشياء الجميلة التي تأتي فجأة فتغيّر عالمنا. أحدثك عن الأمنيات الطيبة التي تجمعت خلف شرفات الغيب، لتتضفر معًا وتتحقق بعد أن نسيناها. أحدثك عن حبك الذي أعلقه كتميمة حول رقبتي، في محاولة للبقاء حيّة وسليمة في هذا العالم المختل».

يحدث ذلك في كونٍ آخر مواز.. أما في هذا الكون، وتحديدًا في هذه اللحظة.. فأنا أتمدد على الأرض الباردة. ينتابني قليل من الخدر وكثير من الإعياء. أنتظر أن أرى النور كي أتجه نحوه، لكن لا أنوار تومض في المكان. أسمع اسمي، تردده إحداهن من مكانٍ بعيد. أركّز كل طاقتي نحو النور الذي سيومض في أية لحظة كي لا أضيّعه. تربت إحداهن على وجهي بخفة ثم بشدة.. علها تنتشلني من هذه الهوة السحيقة التي أتجه نحوها عن طيب خاطر. لكني لا أرى أنوارًا، ولا يمكن لربتتها على خدّي أن تنتزعني من هوّتي.

«لولا أن ربطنا على قلبها»..

في الأيام الأخيرة التي كنت أقاوم فيها الاستسلام المقيت، كنت أتعلق بأية قشة وأدّعي أنها رسالة موجهة. كنت أظن أن كل يومٍ نجوت فيه من الاستسلام، زادني بُعدًا عنه.. وقلل من فُرَصِه في الانتصار. لم أكن أدري أني أستنزف طاقتي وآكل فُرَصِي -أنا الأخرى- في النجاة.

لا أعلم من أين جئت بهذه الجرأة التي دفعتني دفعًا نحو الاستسلام.. كنتُ واعية. مدركة لما أفعل. راجعت نفسي عدة مرات. فعلت فعلتي على مراحل. لم يكن تهورًا أو رد فعل لحظي لموقفٍ عابر. كان قرارًا يختمر في روحي وينتظر الوقت المناسب كي يتحقق. وحين جاء وقته، تدثرت بقليل من الشجاعة وكثير من الأنانية، وفعلتها.

ممددة على الأرض الباردة، يندفع الأدرينالين والإندروفين في دمي.. فتقل الآلام وتزداد النشوة. تتفتح حواسي كلها في محاولة للتعرف على مراسم حضوره. لكنه لا يحضر.. ولا يجيء. أيأس قليلاً فأترك الأرض الباردة وأنهض مترنحة لأتمدد على سريري. أفكر في شعري المشعث ومظهري المزري وعيوني المنتفخة ببكاءٍ لم يُسكب، وأقرر أن أتجمل له.. علّه يستجيب للغواية فيحضر. أجلس في حوض الاستحمام، دون أن أفكر في شيء. أمشط شعري الذي تشابك وتقطّع. يخطر في بالي أنه ربما يُفضّل ألا أراه.. أتناول أقراصًا -أخرى- منومة.. قرصًا، اثنين، ثلاثة، أربعة. فأنا لم ألتقيه من قبل ولا أعرف ما يفضّله، ربما يفضّل أن يجيء متسربلًا بخفاء. لا أمتعض لذلك، فالمهم أن يأتي. لكن الأقراص -كلها- لا تقوم بعملها. أظل مفتوحة العينين فلا النوم يأتي ولا الموت يجيء.

في النهاية.. أستسلم لفكرة أنه لن يجيء. أعترف لنفسي بذلك وأقره. لا يكفي أبدًا أن تتناول حفنة

أقراص متنوعة كي تنعم بموتٍ يليق بك وتشتهيه. يجب أن يشتهيك الموت كي يجيء. والموت لم يشتهيني بعد، لذا مهما حاولت وقاتلت لن يجيء. فانصياعك للاستسلام وترفعك عن المعافرة، لا محل لهما من الإعراب أمام رغبة الطرف الآخر فيك. والموت لم يرغب فيَّ بعد.

أنهض من الأرض البادرة وأذعن صاغرة لغسيل المعدة. المحلول الملحي يحرق لساني وحلقي. الدموع تجري منسابة وكأن مجرىً مائيًا حُفر من أجلها في التوّ واللحظة. أتقيأ المحلول الملحي ممزوجا ببقايا الأقراص التي سكنت معدتي منذ يومٍ سابق. تنتابني رعشة وتتسارع نبضات قلبي. للحظة يلتبس الأمر عليّ وأعتقد أنه جاء. لكن هذه الأعراض أبعد ما تكون عن مراسم حضوره. فمراسمه يحيطها مهابة يُعرف بها وتليق به. أبدأ في تجرع زجاجات من الماء.. لأفرّغها -هي الأخرى- فيما بعد. أتناول حفنة من أقراص الفحم، وأتمدد بائسة على سريري.

تُوسوس لي نفسي أني بالفعل قد نجحتُ في المحاولة. فالفكرة ليست في توقف الأنفاس وزرقة الشفاة والتحول لروح خفيفة مرتفعة قليلا عن البدن. لكن الحكاية تنحصر في أن جزءًا مني قد مات فعليا في ذاك اليوم. أفكّر لثانيتين وأكتشف أنه: نعم..

فأنا أقدمت على هذه الفعلة عن طيب خاطر وعن اقتناع وبإرادة كاملة حاضرة، برغم ما أعرفه من وقع

هذا الموت على الجميع وما سيجره على أحبائي من ألم. فعلت ذلك ولم أهتم سوى برغباتي.

لذلك ابتسمت حين وضع الطبيب سماعته -في اليوم التالي- ناحية الجانب الأيسر من صدري. وحين لم يجد شيئًا، تركها ليمسك بمعصمي، وحين يأس من الوصول لمبتغاه.. تفحص بإصبعيه رقبتي في محاولة أخيرة لقياس النبض وهو ممتقع الوجه عاقد الحاجبين. وحين هز رأسه متعجبًا ونظر بهلعٍ في عيني.. تيقنت أني فعلتها وانتصرت بشكلٍ ما في هذا اليوم ونهضت من الفراش تاركةً إياه يتخبط في ذهول.

أم الوَليّ

تلمس بيدها الحائط وكأنها تُمسّده. أرى نظرة الحزن التي تكسو ملامحها. تتوجه بكليتها للحائط وتبدأ في التمتمة. لا أتبيّن ما تقوله لكني أعرفه جيدًا. تتململ الصغيرة تحت الأغطية. فتقطع نجواها وتعود لتُحكم حولها الغطاء. تُصدر الصغيرة صوتًا يشي بالضيق. تبدأ في الربت عليها وتُخبرها أن عليها أن تصبر للصباح وتتماسك حتى تنقشع الحمى. تهدأ الصغيرة قليلا وتذهب في النوم. تمسح عنها حبّات العرق وهي تردد «عَرق العافية.. عرق العافية». تتشبث عيونها بالحائط فلا تلمح طيف أبي الذي ولج إلى الغرفة.

هي سيدة متعلمة. لكنها «أم»، قد تنساق وراء الخرافات من أجل الوصول لمبتاغها. حين أحضرت منذ عشر سنوات تلك السمكة الغريبة كريهة الرائحة وَجَل أبي. كانت قد عرفتها عن طريق إحدى السيدات البسيطة في صالون تجميل. تقصت عنها وبحثت طويلا حتى آمنت أن هذه السمكة التي تتكاثر ذاتيًا قادرة على أن تمنح رَحِمَها –ببركتها- القدرة على الإنبات. لكن السمكة -التي عانت حتى عثرت عليها- ماتت بعد يومين من تواجدها في البيت. رفضت أن تُصدّق الفأل السيء وأن رَحِمَها أجدب لن يُنبت أبدًا، وألقت باللائمة على البيت الذي تشعر فيه بضيق وانقباض. وقررت أن تتركه. حاربت من أجل ذلك، حاربت وانتصرت. وفي البيت الجديد الذي تدخله الشمس وسبق وأن شهد ميلاد خمسة من الأبناء، لم تضطر لإحضار هذه السمكة،

فقد حَمِلت منذ الشهر الأول. لكن الأطفال ذهبن مبكرًا جدًا. إما كـ «سقط» أو بعد شهور قليلة من مَجيئهن أحياء. لم تفقد الأمل ولم تفتر الرغبة التي تنهش قلبها وجسدها. وبدأت السير في خطين متوازيين. العلم والأطباء، والشيوخ والوصفات الشعبية. لا أعرف بالضبط تفاصيل دفنها لي في حائط الغرفة الصغيرة. لكني أظن أن إحداهن نصحتها بذلك. ففي الأرياف النائية والمناطق الشعبية تتكاثر الخرافات. ورغبتها في نبتة تنمو أمام عيونها وتكبر لتضرب جذورها في الأرض طغى على كل شيء. حين أخبرت الطبيبة أنها تُريد بقايا «سقطها» كي تدفنه بنفسها لم تعترض. ولكن حين عادت بي للبيت، ثار أبي ورفض رفضًا تامًا أن تنساق وراء «الجهل» وتضعني في الحائط كي أحمي القادمين من بعدي. بكاؤها لم يشفع لها عنده، وخرج مغاضبًا. لكنها عنيدة جدًا ومتشبثة بالحياة. أزاحت الخزانة وصنعت حفرة في الحائط. ووضعت الـخِرقة التي تحمل بقايا الدم والمضغة وسوّت عليها بالجبس الأبيض. ظلت تقرأ أورادًا غريبة وآياتٍ محددة وتطلب مني أن أكون الحارس لأبنائها القادمين. إخوتي. أعادت الخزانة موضعها. واتصلت بأبي بعد يومين وأخبرته أنها نزلت على رغبته وستذهب الآن للتخلص من بقايا «حارث». ورغم أنها لم تعرف أني ذكرٌ. إلا أنها قررت أن تُطلق عليَّ «حارثًا». آملة في أني قد «حرثت» رحمها من أجل الآتين بعدي. وحين اكتمل حمل الصغيرة أخيرًا

وجاءت، أسمتها «نور». وأخبرت أبي أنها ستُنير عتمة حياتهم. لكن الصغيرة التي صمدت سنة ونصف، تقف الآن ممزقة، على بضع خطوات من الموتِ و.. الحياة.

تمسّد «أمي» الحائط الذي وضعتني فيه قبل سنوات بعيدة. تطلب مني أن أتحول من «حارث» إلى «حارس». تُعلِّق عينيها بالحائط والسقف. تناجي الرب وتتشفع بعدد من فقدت طيلة سنوات كثيرة. تنظر للحائط بغضب، تطلب مني أن أفعل شيئًا وأن أمنع ملك الموت من أن يجوس الغرفة ويقترب من أختي. أسمع بكاءها ونجواها وأتطلع معها –عاجزًا- نحو السقف.

تغفو وهي تقرأ الأوراد والآيات. أجد القوة والفضول للخروج من الحائط. أتحرك نحو الصغيرة النائمة التي تشع حرارة. أقترب منها فتفتح عيونها. تبتسم لي وتمد يدها كي تلمسني. أرتعد وأتراجع. هل تراني؟!. عيونها تتبعني أينما ذهبت. أنا لا أعرف شكلي. أنا مضغة لم تكتمل. هل استطالت قامتي وصرت رجلا؟ أم أنها تراني طفلا في مثل عمرها؟!. الصغيرة التي ظلت تصدر أصواتًا غير مفهومة كانت تمد يدها في اتجاهي وتبتسم بعذوبة. غالبت خوفي واقتربت منها فأضاء وجهها. مددت يدي ومسحت على رأسها الساخن وجلست بجوراها أردد تلك الأوراد الغريبة التي كانت تتمتم بها أمي. هدأت الحرارة وغفت الصغيرة وهي ممسكة بأهداب خِرَقي البالية. حاولت أن أنسل عائدًا لجداري فتململت وقبضت عليّ بشدة فتركتْ بين أصباعها قطعة

من خِرَقى.

في الصباح انتبهت على بكاء أمي فارتعدت. لكن صوت الصغيرة ربت على قلبي. وانتبهت أن بكاءها مقرونًا بحوقلة وبسملة وربتات متباعدة على فخذها وهي تتمتم كنت أعلم.. كنت واثقة، الحارث وليّ، الحارث وليّ. اتسعت عيون أبي وهي تحكي له ما كان من أمر الحائط و «السقط» المدفون فيه وتُريه الخِرقة التي وجدتها في يد الصغيرة. وحين أزاح الخزانة ووجد بقعة الجبس الأبيض تتوسط الجدار. شهق غير مصدق وأخبرها: لدينا وليّ. ابننا وليّ يا أم الوليّ.

الغرفة صارت قِبلة أصحاب المقاصد. الحائط الذي أقبع فيه صار أخضر اللون بعد أن أزاحوا الخزانة وأعادوا طلائه. الفراش الوحيد في الغرفة صار يستقبل الأطفال المرضى والنساء العجائز اللواتي يخشين الموت ليبتن الليل فيه وينتظرن أن أخرج من الحائط لأتلو عليهم تلك الأوراد الغريبة التي رددتُها على مسامِع «نور» فحَرَستها وقهرت الموت. أمي رفضت أن تتقاضى أجرًا أو أن تضع صندوقًا للنذور كما أشار عليها البعض، تكتفي فقط بأن تختال على الجميع بأنها أول من صدّق في سيدنا «الحارث» وأنها -هي- أم الوليّ .

سَكَنَ

«أنا من فتحت الثربة كي أدفن الأستاذ. لازلت أتذكر هذه الليلة كما لو أنها بالأمس...

«أنا ثُربي هذه المقابر أبًا عن جد. مرّ عليّ الكثير والكثير، لكن «مثلها»، لم يمر.. ولن يمر يا أبلة...

« لا، ليست بكماء. هيّ فقط لا تتحدث معنا كأنها لا ترانا. طوال الوقت أسمعها تحدّثه. أحيانًا أظن أنه سينفض الموت عن كتفيه وينهض من أجلها. كلامها يُذيب الحجارة ويقطّع نياط القلب...

«ليلتها كادت أن توقظ بصراخها كل الأموات. حتى هؤلاء الذين بَلت عظامهم...

«تركوها جواره ورحلوا، وأظنهم –بعد كل هذه السنوات- نسيوها...

«لا أدري من أين يأتيها الطعام. أظنّه طعام الرحمة والنور الذي تأتي به النساء في الخِمسان. حتى ملابسها نظيفة دائمًا، لا أعلم متى تغسلها...

«هي لا تتوقف لحظة عن الكلام معه وكأنها تراه ويجلس معها. أحيانا يعتريني الخوف. نعم الخوف. أنا الثربي المولود هنا، أحيانا أخاف منها. أعتقد أنها وليّة أو قديسة، ألم يكن محراب «أم النور» لا يفرغ من الطعام أبدًا؟ ربما كان فيها شيء لله كـ «أم النور».. وربما يصير الأستاذ مسيحًا ويقوم من أجلها. لا حول الله يارب، أعلم أن ما أقوله ليس عقلاني، لكني فعلا لم أرَ مثلها...

«نعم سمعت أنها كانت حامل وقت الحادث، لكن بطنها لم تنتفخ أبدًا ولم أرَ أثرًا لسقط أو نبش لقبر صنعته لوليدها. الله أعلم بالحقيقة...

«أمر عليها يوميًا وألقي السلام. لكنها لا ترد أبدًا، وكأنها في ملكوت خاص. تعالي معي، لا تخافي.. هي ليست مؤذية. هي لا ترانا ولا تشعر بنا...

«حين أقرأ القرآن في مقبرتهم كل جمعة بعد الصلاة، تتوقف عن مناجاته وتعتريها سكينة تمتد لتشملني. في الحقيقة، أواظب على القراءة من أجل هذه السكينة. لو عدتي يوم الجمعة ربما تحصلين على جزء منها...

«ما هذا الذي تقولين يا أبلة. هل أصدّق جرائدك هذه وأكذب عيني؟ لابد وأن هناك لَبس في الأمر...

«نعم هذا اسمه واسم عائلته أنا تربي المقبرة وأعرف عائلته فردًا فردًا. لا إله إلا الله. لا إله إلا الله. إن كانت قضت معه في الحادث كما يقول النعي. فمن هذه التي تسكُنْ في المقبرة منذ ثلاثة أعوام. هل أكذب عيني يا ناس؟. والله إنها بشر من لحم ودم. جاءت معهم ليلة الدفن وأقسمت أنها لن تفارقه وسَكَنَت هنا. لا إله إلا الله...

«ما عفريت إلا بني آدم يا ناس. ما عفريت إلا بني آدم.. إنها لا تظهر في الصورة التي التقطيها فعلا! «الست هدى» التي تسكن معنا المقابر منذ ثلاثة أعوام، عفريتة!!!. لا إله إلا الله. عقلي سَيَشِت يا ناس...

«لا أعرف شيئًا عما تقولينه يا أبلة. ماذا تعني الأرواح العالقة هذه؟ ... نعم نعم فهمتك، هي هنا لأنها ليست مستريحة في رقدتها هناك بعيدًا عنه. آمنت بك يا رب. آمنت بك...

«أسمع عن الحب الذي لا يفرقه الموت، وكنت أظنها تجسيدًا له. زوجة مُحبّة، مات زوجها فانقطعت عن الدنيا وسكنت مقبرته، تحدثه ليل نهار وكأنه حيّ يسمعها. لكن أن تهيم «روحها» وتأتي لتسكن المقبرة بجواره حزنًا على فراقهما. هذا أمر لا يستوعبه عقل يا أبلة. آمنت بك يا خالق الأكوان...

«والله حرام. ليت أهله وافقوا على دفنه بجوارها في مقبرة أهلها ليُريحوها. مالذي استفادوه بتفريقهما؟!. لقد توقفوا عن زيارته منذ أمد. والموت يبدو أنه حين اختاره، اكتفى به منهم. لم يمت لهم صغير أو كبير منذ ثلاثة أعوام. لا حول ولا قوة إلا بالله...

«ربما توقفوا عن زيارته خوفًا منها كما تقولين. لم يخبرني أحدهم أبدًا أنها –بسم الله الرحمن الرحيم- ، مع أني كنت أطمئنهم عليها كلما أتوا للزيارة. وأُخبرهم أن عيني عليها...

«وما العمل؟ المسكينة ستظل هنا للأبد. ليست مستريحة في رقدتها هناك بدونه. لا حول ولا قوة إلا بالله...

«أنتِ شاهدتيها بعينك يا أبلة. الأمر ليس تخيلًا. الكل

هنا يعرفها. حتى أهالي باقي الأموات الذين يجيئون بانتظام كل خميس. لا أحد يعرف أنها «سلامٌ قولٌ من رب رحيم»...

«سأحضر لكِ صورة لي، وشكرا يا أبلة، سأشتري الجرنال لأقرا الموضوع. مع السلامة...

«نعم.. عرفت بالأمس والأبلة الصحفية هنا. لم أشأ أن أخبركم كي لا تخافوا منها أو تؤذوها. الست بيننا منذ ثلاثة سنوات. لم نر منها شرًا أبدًا. اتركوها لحال سبيلها، الله يرضى عنكم. وليساعدني الله ويغفر لي فيما أنوي...

«يا سِت هدى.. لماذا لم تخبريني؟. ما أنتِ فيه لا يرضى به كافر. والله لا يرضى أبدًا بعذابك. يا بنت الناس، سأبحث عن عنوان مقبرة أهلك وسأنقل لكِ عظام الأستاذ ليسكُن بجوارك. الله لا يرضى بتفريقكم أبدًا. فقط أمانة عليكِ.. يوم اللُقا، حين يحاسبني الله عن نبش قبر الأستاذ، دافعي عني وأخبري الأستاذ أن يصفح. والله لا أفعل ذلك إلا كي أجمع شملكما ولتستريحي يا بنيتي. سأفتقدك والله. لكن غدًا – بمشيئة الله- ستستريحي في رقدتك».

خَضرة اليمامة

إلى/محمد يسري

«أخبِرْه أن يهدّئ من روعه. فعند الكيلو ٢٠، ستفلت من يده عجلة القيادة وستنقلب به السيارة». يصرخ «أبو منى» على زميل الطريق، ليُخبره: «بالراحة يا زميل، ربّنا يسلّم طريقك. احذر الكيلو ٢٠». ينظر الزميل بغضب نحو «خضرة» ويزعق فيها: نَعقتي في وجهي يا غراب البين؟ ربنا يكفينا شرك. تبتسم «خضرة» وهي تُتمتم: لا أملك شرًا ولا خيرًا، ما أنا إلا رسول يا ولدي. فقط قُد على مهل واحذر الكيلو ٢٠. يسير الزميل الذي حذرته «خضرة» على مهل وهو يلعن الصباح الذي جعله يمر بجوار ميكروباص «أبو منى»، ليسقط فريسة لغراب البين ونبوءتها المشئومة. يغلق الكاسيت الذي يصدح بأغاني مهرجانات مبتذلة، ويبدأ في ضبط مؤشر الراديو على إذاعة القرآن الكريم. يُخبره التبّاع: ركّز يا ريّس في الطريق، وسأضبطها أنا. فيلكزه في كتفه: أنت السبب، أضعت الولّاعة، فاضطررنا أن نطلب منه وِلعة. وها قد رأتنا غراب البين ونعقت في وجهنا. «هات العواقب سليمة يا رب. وحياة النبي حبيبك يارب». يستدير صارخًا في التبّاع: اطفئ هذه السيجارة يا قحب. الملعونة قالت أن النقل ستنقلب بنا وأنت لازلت تدخن الحشيش؟. الله يلعنك.

يُكبّر سائق النقل حين يرى على مرأى البصر -عند الكيلو ٢٠- سيارة نقل مقلوبة على الطريق. نجونا يا ولد. سبقنا غيرنا للقدر المحتوم التي نبأت به المبروكة. يُصدر التبّاع صوتًا حيوانيًا وهو يضحك: أصبحت

مبروكة الآن يا ريس كانت غراب البين منذ دقائق. يستشيط السائق غضبًا ويصرخ فيه: ألم تقل أن نقلاً سينقلب عند الكيلو ٢٠ وصدقت يا قحب؟ إذن مبروكة وتعلم من الله ما لا نعلم.

يصرخ التبّاع: احذر يا ريّس احذر.....

يقترب «أبو منى» من الكيلو ٢٠. ينظر للسيارَتين المهشمتين ويخبط كفًا بكف: لا حول ولا قوة إلا بالله، حذرناه وطلبنا منه أن يتوخى الحذر. لكنه لم يستمع. لم يكن ينقص إلا أن نقود النقل بدلاً منه. تُهمهم «خضرة»: مقدر ومكتوب يا ابني. مقدر ومكتوب. يلقيان نظرة حزن وشفقة على كابينة القيادة المتحطمة، فتلتزم «خضرة» الصمت. في حين لا يتوقف «أبو منى» عن الحوقلة والاستغفار والنظر بخوف لـ «خضرة».

يقول الناس أن قدرة «خضرة» على رؤية الطريق عن بعد زمني، بدأت منذ سنة أو يزيد. فـ«خَضرة» تسكن إحدى القرى المتطرفة التي تبعد عن المركز الرئيسي التابعة له بعشرات الكيلومترات. تخرج يوميًا على الطريق الزراعي علّها تجد من ينقلها معه دون أجرة للمركز، حيث تعمل في بيع الخضروات الورقية والأجبان المصنوعة في المنزل. منذ سنة تقريبا أوقفت سيارة نقل، لم يكن فيها مكان في الصندوق فأجلسها السائق معه في الكابينة الأمامية. الأمر الذي سهّل لها رؤية الطريق. يقول عم «صلاح» -السائق الذي شهد

نبوءة «خضرة» الأولى- اعترتها نوبة تجلٍّ كتلك التي تحدث للمريدين في حلقات الذكر والصلاة والإنشاد، ثم اختنق صوتها وهي تردد: يا ساتر يارب يا ساتر يارب. ثُم لم تُفصح عن شيء. لكن بعد ٣٠ كم انفجرت إحدى الإطارات وانحرفت النقل بنا نحو الزراعية. ومن لُطف الله، انقلبت السيارة على جانبها واستقرت مكانها. وقتها سألت «خضرة» هل كان لخوفها واستجلابها لستر الله أي علاقة بما حدث لنا. فأومأت بالإيجاب، وأخبرتني أنها رأت الإطار وهو ينفجر والسيارة تنقلب على الطريق.

شاع الخبر بين سائقي النقل، فخافوا منها وامتنعوا شهورًا عن التوقف لها. لكن «أبو منى»، فكّر في أن يستخدمها. «تركب معي وتتنبأ بحال الطريق، فإن كنت أنا المقصود بالحادث، تُنبهني. فأتوقف أو أغيّر وجهتي. وإن كان زميلاً، لحقت به وحذرته».

«سلامتي أو سلامة غيري، لا تساوي أجرة الراكب التي تضيع عليّ بركوبها معي».

«طوال هذه الشهور، لم يحدث لي شيء. كل نبوءتها تنصب في وِجهة غيري. ربما كان رُكوبها معي «بركة» تمنع عني السوء».

«حاول عم «صلاح» أن يساومني على رُكوبها معه، باعتبار أنه شهد نبوءتها الأولى وأُصَابته، لكني استقتلت في التمسك بها ورفضت رفضًا تامًا. لم أعد أأمَن الخروج للعمل دونها، «خضرة» صارت حِجابي

الحافظ».

لا يعرف «أبو منى» ماذا تم بالليل. لكنه في أحد الصباحات، لم يجدها في انتظاره عند نقطة الالتقاء المعتادة. وحين فاتَح الرُكّاب في العودة مرة أخري للمَوقف، وركوب سيّارة أخرى لأنه لن يستطيع إكمال الطريق، علت أصواتهم وأبدوا رفضًا قاطعًا للنزول. كما تطوّع أحد الأشقياء الذين كانوا بين الرُكّاب بتهديده: لو نزلنا من «الميكروباص» لن نتركه سليمًا. فالأحسن أن تمضي لحال سبيلك، وراءنا مصالِح ولا وقت للعَطلة.

في المساء، عَرِف أن السائقين منعوها من الخروج على الطريق، وهددوها إن وجدها أحدهم واقفة في انتظار «أبو منى»، أنهم سيدهسونها ولن يكون لها ديّة. ثم عادوا وأخبروها أنهم لا يرضيهم وقف حالها، ولكن وجودها على الطريق صار يُثير الذعر والشؤم. «حوادث الطريق أمر طبيعي، لكن وجود من يعرف عنها ويُخبرنا.. يجعلنا تحت ضغط عصبي وتوتر. الله يرضى عنكِ امكثي في بيتك معززة مكرمة وسنرسل لكِ «شهرية» واتركينا منا للطريق».

لَزَمت «خضرة» بيتها كما أمروها، وانفرجت أسارير سائقي السيارات على الطريق الزراعي.
«كلنا سنموت، لكن لا أحد يريد أن يعرف متى، أو عند الكيلو كام، تاركينها لله وكما تجيء».

لكن نبوءات «خضرة» وحالات التجلّي التي تصيبها لم تلزم الغيب. في أحد الصباحات التالية فتحت نافذة

البيت وقالت بصوتٍ عالٍ: يا طالع النخل. احذر. احذر ساعة العصر.

ربما لم يسمعها أحد، وربما من سمعوها لم يعيروا اهتمامًا لكلمات غامضة لا تعني شيئًا.

لكن، حين نادى المنادي قبل صلاة المغرب، على ميت من بيت أبو هيبة وشاع في القرية أنه سقط من فوق النخلة.. شاع الخبر في البلد سريعًا، غراب البين نعق عليه فيه الصباح.

كل البيوت تناقلت الخبر وانتشر بينها سريعًا، كما انتشرت النار المستعرة في حطب بيت «أبو ناصر» اليابس. كانت قد استيقظت ذات صباح وهي تردد: حذار من طرف رداءك، النار ستلتهمه. اجمعي جلبابك وضعيه في حِجرك.

في المساء، كان بيت «أبو ناصر» خرابًا.

«أخرجوها من قريتكم». هكذا قال الرجال في المنادِر. وأمّنت النسوة على ذلك. غير أنهم عادوا وتراجعوا. استحرموا أن يَبلوا بها قرية أُخرى. كما أنها لا تعرف مكانًا آخر، ولن يُرضي الله أن تُشرَد على آخر زمانها. وربما يكون في إخراجها فتح لطاقة جهنم.

يقولون أن أم ناصر هي من أشارت عليهم بتلك المشورة. ورأت في ذلك حلاً سحريًا. «نأمن نعيقها في وجوهنا ولا نخرجها من دارها ونجور عليها». لقت مشورتها استحسان الجميع، رجالاً ونساءًا. لكن «قابلة»

القرية هي من نفذت...

لا يعرف الصغار عن «خضرة» سوى أنها المبروكة الخرساء التي تسكن ناحية «الثُرب» ويتحاشاها أهل القرية ويرفضون الإشارة لها في أي حديث. لكن ذلك لم يمنعهم من الذهاب يوميًا حتى دارها. يقذفون النافذة بالحصى وينادون عليها. فإذا ما خرجت لِتطاردهم بسبابها غير المفهوم. أخرجوا لها ألسنتهم واندفعوا يرددون: خَضرة هَابه هَابه.. في محاولة منهم لتقليدها.

صلصلة الفراشات

تتحرك أجنحة الفراشات المثبتة أعلى الباب لتشي بدخول أحدهم إلى المكتبة، أهم بوضع الكتاب على الرف والالتفات للترحيب بمن أتى، فتسبقه رائحته المميزة لتُعرّف به. أتأرجح بين إكمالي لما أفعل وبين الالتفات إليه وكأني لا أعلم من هو، فيباغتني بالوقوف إلى جواري. أبتسم له وأسأله عن حاله، فيضيء وجهه وهو يردد: أنتِ هنـا.. يالها من مصادفة رائعة !

يعرف هذا الرجل جيدا كيف يغيظني و يشعل غضبي. أجز على أسناني وأبتسم وأخبره في هدوء البراكين الخامدة: وهل تعلم أن هذه المكتبة ملكي أم أن هذه المعلومة ستتسبب لك في صدمة جديدة؟. يقهقه وهو يرد لي الصاع بمهارة لاعب محترف يعرف ما هو مُقدم عليه جيدًا: ما أقصده أنكِ لا تتواجدين أبدًا يوم الثلاثاء. لذا بدا وجودك هنا الآن مصادفة رائعة. كدت للحظة أن أبتلع الكذبة وأعتذر لالتباس الأمر عليّ، بيد أنه خطر ببالي أن الملعونة «شهيرة» لابد وأنها أخبرته أني هنـا اليوم، لذا جاء يتبختر كطاووس مدعيًا أنه لا يعلم بأمر وجودي.

انصرف عنّي يفتش في الأرفف عن كتاب أعرف يقينا ودون أن يسأل عنه أنه ليس موجودًا. أتجه أنا نحو طفلتي العزيزة التي لا أعلم كيف كانت الدنيا لتكون لو لم يخترعوهـا، أبدأ في إعداد كوب الكابتشينو الـ ... الذي لا أعرف عدده وأنتقل به وراء طاولتي. يجيء حاملاً في يده «الطنطورية»، ويسألني عن «ولدت

هناك، ولدت هنا».

أمنع نفسي من الضحك بعد أن صدق حدسي، فهو يعلم جيدًا أن هذا الكتاب يصعب توافره، وها هو كان يبحث عنه. أكرر عليه ما أكرره في كل مرة يسأل فيها عن هذا الكتاب، فيتمتم : سآخذ هذا الآن و سأفعل لاحقًا. يمنحني ثمن الكتاب وهو يسأل -كالعادة- أن أمنحه عود بخـور من المتواجدين أمامي كي يشعله في السيارة. أتضرر من هذا الطلب وأهم بأن أرفض ثم أتراجع وأهز كتفي لا مبالية وأمنحه إياه وأنا أعدُ نفسي بأن أشتري نوعًا آخر أعطيه منه كلما سألني. فمنذ أخبرني أن كل النساء تفوح منهن عطور مختلفة تعبر عن أمزجهتن أو نفاد عطور واستحضار أخرى، إلا أنـا.. دائمًا وأبدًا تفوح مني رائحة واحدة مميزة، يمتزج فيها بخور الصندل خاصتي مع نكهة الكابتشينو الذي أشربه ليل نهـار، وأنا أكره طلبه بأن أمنحه في كل مرة يأتي فيها عود بخور ليشعله في السيارة.

يحمل كتابه وقسيمة شرائه وعود البخور ويبتسم لي ويرحل مُخلفًا وراءه أجنحة فراشات ترفرف وأدرينالين يتدفق.

«أنا لستُ ساذجة لأغفل المعنى المبطن. هو يحاول إقناع نفسه أنه يحملني معه في كل مكان وخاصة لو كان حميميًا كسيارته التي تصدح فيها «أنغام» طيلة الوقت تنصحنا بـ «القالك حد».. لا أعلم لماذا أخبرتني اللعينة «شهيرة» بأمرٍ كهذا. أكانت تأمل أن تزيد من

رصيده لديّ إذا ما عرفت عن حبه لـ «أنغام» ولهذه الأغنية بالتحديد ؟!!. يا الله.. لو أنها تتوقف عن محاولاتها المستميتة للتوفيق بيننا، كيف لي أن أقنعها بذلك وهي ترى فيه فارس الأحلام المثاليّ. ربما هو كذلك، ولكن ليس لي. غدًا سأخبرها إن كان يعجبها لهذه الدرجة فلتطلب الطلاق من أخي وترمي بشباكها عليه. أعود وأضحك من هذه الفكرة، فـ «شهيرة» المتكلمة اللبقة، هزت رأسها بالإيجاب حين عرض عليها أخي الزواج. هزت رأسها دون أن تجرؤ على رفع عينيها في وجهه. ودون أن يعلم هو أنها أحبّته في صمتٍ لثلاث سنوات».

ها هو يستحضرها الآن.. « أنغام» العزيزة على قلبها وقلبه تصدح في السيارة المغلقة النوافذ، كتابه الجديد الذي أمسكته بيدها فتركت على غلافه بصماتها يجلس بجواره، رائحتها المختزلة في عود بخور تعبق الأنحاء.

يتملكه الغضب فجأة ويتمتم لنفسه: ياالله.. ما هذا الذي أفعله وما السر الكامن فيها والذي يجعلني أتصرف كمراهق يقع في الحب لأول مرة؟!. و لماذا لم أنصرف عنها بعد كل هذا الصد من جانبها !!

يتملكه غضب حقيقي.. يدفعه لفتح النوافذ وكأنه يصرفها. يُسكت «أنغام». ويقرر أنه لن يذهب ثانيةً إلى هناك.. سيشتري كتبه عبر الإنترنت، وإذا كانت تستمتع بملاعبته بهذه الصورة، فقد حان الوقت لتغيير قواعد اللعبة.

تُخبرها «شهيرة» بصوتٍ هادئ ورصين أن الأمر ليس كما تراه من زاويتها.. فهي لا تتعامل معها على أساس أنها أخت زوجها العانس التي ترغب في تزويجها.. تُذكّرها: أنتِ صاحبة عمري يا «ليلى»، أعلم عنكِ ما لا تظنين أني أعلمه وأرى أنكِ تستحقين بهجة حقيقية، لا تلك المزيفة التي يمنحها لكِ كوب كابتشينو وعود صندل وكتاب.. الحياة تُرغمنا على المضي قدما فلماذا تريدين أن تخرقي قانون الحياة؟!

تسألها «ليلى» ببرود: هل في عدم ميلي إليه و الرغبة في مجاراته خرق لقانون الحياة..؟.

تصرخ «شهيرة» في وجهها: لا تتلاعبي بي يا «ليلى»، تعلمين جيدا أني لا أتحدث عنه، و إن كنتُ لن أسامحك هذه المرة إن تركتيه يذهب.

تتمتم «ليلى» بصوت غير مسموع: أظنه ذهب بالفعل. ولن تكوني أول من يفعل، أنا اعتدتُ التعايش مع الإحساس بالذنب.

لابد أنه سيحضر، فما كان لمهووسٍ بالأدب أن يُخلف أمسية كهذه. اعترفي لنفسك يا «ليلى» هل تصدقين تلك التميمة التي يرددها لسانك منذ أول النهار: أرجوك لا تجيء.. لا تُفسد يومي، و إن كنت تُصدقينها فلماذا ترهفين السمع لأجنحة الفراش؟ على من تكذبين؟ ألم تكتفي من محاولاتك المستميتة طوال هذه السنوات للتطهر من ذنبك البعيد!. أشغل نفسي بمتابعة تفاصيل اليوم. لا أمنح نفسي الفرصة للتفكير، حتى إذا ما جاء

أخيرًا و هز رأسه لي وسلّم بحرارة على «شهيرة» وذهب ليجلس في الصف الأخير، لم ألتفت إليه ولو لمرة واحدة بالرغم من أن قلبي لم يشح بنظره عنه !. حين انتهت الندوة ولم يتلكأ كعادته ورحل، شعرتُ بخيبة أمل لا يجب أن أشعر بهـا، نحّيتها جانبًا وذرت مع «شهيرة» كنحلتين تريدان الانتهاء من ترتيب الخلية علّ وقت الراحة يحين.

لا أعرف هل كانت خيبة الأمل بادية على وجهي فرقّ قلب «شهيرة» لي ولم تشر إليه من قريب أو بعيد، أم أنها ألقت طوبتي بعيدًا واستسلمت!. لم أسأل ولم أُبدِ اهتمامًا، وحين سألتني إن كنت سأرحل معها أم سأنتظر قليلاً كي أشعل بخوري وأعيد لأرففي رائحة الكابتشينو التي استنفزتها أنوف الزوّار.. ضحكت وأخبرتها: بالضبط.. لا يمكنني الرحيل دون إلقاء تعويذتي اليومية.

قبّلتني وحملت قبلاتي للصغيرين ورحلت. أترجل قليلاً في الأنحاء، أدور على الأرفف ألمس خشبها بصورة توحي لمن يشاهدني أني ألقي عليها حقًا بتعويذة خفية. اتجهتُ نحو صغيرتي وبدأت في إعداد مشروبي المقدس، و لا أدري -و لن أدري أبدًا- كيف تواطأت فراشاتي .. معه.

ألتفت فجأة لأجده واقفًا بكل أريحية مستندًا بظهره على بابٍ مغلق، تتراقص فوقه فراشاتي في صمتٍ مهيب خوفًا من أن تفسد جلال اللحظة.

هل فزعتُ -حين وضعت يدي على قلبي- لأنه عاد؟ أم لأني شعرت أني استحضرته بتفكيري فيه فالتقط هو إشاراتي وحضر من حيث لا أدري؟. أسأله بنبرة اتهام: مالذي عاد بك وكيف دخلت؟

يُخبرها أنه نسيّ نسخته الموقعة وهاتف «شهيرة» فأخبرته أنها لازالت هنـاك فعاد للبحث عنها. يضحك هازئًا من سؤالها: ومما لا شك فيه أني لم أدخل من الشباك يا ليلى!

ها هي شهيرة تفعلها مرة أخرى أسبّها في سري، وأسأله أي بابٍ هذا الذي دخلت منه؟ بابي هذا؟ وكيف لم أسمع صلصلة الفراشات حين فُتح الباب؟

يُخبرها بغير مبالاة: لأنكِ لم تكوني هنـا. أنا هنا منذ فترة، أنتظر أن تفيقي من شرودك و تنتبهين لي.

أرد في غضب من ضُبط متلبسًا بجرم ويدفعه عنه: لم أكن شاردة للدرجة التي تحجب عني دخولك وصوت الفراشات. الأمر محير. لكن لا بأس، دعني أبحث لك عن كتابك كي.....

أرحل ؟!! يرددها هو بالنيابة عنها. يُغادر بقعته التي ظنّتْ أنه لن يبرحها إلى الأبد ويتجه نحو أقرب طاولة ويجلس. يُخبرها أنه لن يرحل دون سببٍ مقنع يبرر له صدّها.

تتركه مذهولة و تتجه نحو صغيرتها، وتبدأ في اعداد الكابتشينو.. وهي تسأل نفسها: ما هذه الثقة التي

يتحدث بها؟ بإمكاني أن أصرخ فيه و أنهره وأطلب منه الرحيل والكف عن التضييق عليّ دون إبداء أسباب. أنا لستُ ملزمة بإبداء أسباب. لكنها لم تفعل. يجذب ظهر المقعد لها فتتهاوى عليه. يحلس أمامها ويُخبرها أنه لن يُقاطعها حتى تنتهي.

تنظر له وتردد بيأس: أنتَ أصغر مني. تقولها وهي تعلم أنه سبب غير كاف. يعقد حاجبيه و يثبّت نظره عليها ويتمتم: حقا!. أبدو للعيان أكبر منكِ بخمس سنوات على أقل تقدير !

تعود لتقول: لستُ أكبر منك بعام أو اثنين.. أنا أكبر منك بسبع سنــوات، أكبر منك بعمرٍ كامل !

يبتسم وهو يجيبها: قد يبدو هذا الأمر جللًا لو كنا في عشرينياتنا يـا «ليلـى»، أنا فارقتُ الثلاثين منذ شهـور وتعلمين ذلك. يبدو عذرك واهنًا فاختاري غيره.

تغضب من رده اللامبالي وتخبره : وهل تظن أنك بثلاثينيتك هذه قد بلغت سنًا يُمكّنني فيه من الاعتماد عليك ناهيك عن غض الطرف عن فرق السن! ثلاثينيتك تلك ليست شهادة ضمان أو حصن أمــان، أنـا أكره الرجال في الثلاثيـن!. قالتها وهي موقنة أنها وضعت نقطة في آخر السطر.

يُقرر أن يُخرج آخر أوراقه ويُخبرها: حسناً يا «ليلى».. لن أسألك توضيحًا. و إن كان يبدو جليا شبحُ لرجلٍ - آخر- في الثلاثين ما زال يحاصر حاضركِ -كما

حاصر ماضيكِ- و لم يُطلَقكِ بعـد.

لكني لستُ ذلك المتملق الذي سيقتربُ منكِ و يمسك بيدك و يخبركِ أنه ليس كغيره. لأني أظنك الآن قد كبرتِ عما كنتِ عليه حين تعرفتِ على ذلك الآخر - ذي الثلاثين- و تعلمين أن أصابع اليد الواحدة.. تتفاوت.

ينهض من مكانه و يستعد للرحيل، ثم يلتفت فجأة ليخبرها بصوت خفيض: فقط للعلم.. أنا لا أحب الكابتشينو. أشرب قهوتي مُرة ومغلية. لا أتملق النساء ولا أتكلم كثيرًا. أجيد التقاط الإشارات وفهمها. وسأتوقف نهائيًا عن المحاولة إذا طلبتي مني ذلك صراحةً. اسأليني إياها و سأفعـل.!

ترفع رأسها و تحدّق فيه وللحظة، يظن كلاهما أنها ستفعل.. لكنها لا تفعـل.

أصل إلى البيت متأخرة. أترك لـ «شهيرة» رسالة أطلب فيها أن تحل محلي غدًا في المكتبة فأنا متعبة. أغلق هاتفي في محاولة للهرب من فضولها الذي سيظل يلاحقني طوال اليوم.

أستيقظ مبكرًا على عكس ما كانت تشي به الليلة السابقة. أتناول فطوري و أخرج للبحث عن الشمس في شوارع القاهرة القديمة. أذهب لجامع السلطان حسن، و أتذكر وقت أن كنت أرتاده بصورة شبه يومية منذ سنين. حين كان تواجدي في أرجائه يرتق روحي التي لم تكن قد اهترئت لهذا الحدّ. أرتكن إلى حائط من

حوائطه وأغمض عيني. أنتبه على صوت رفرفة أجنحة الحمـام. أبتسم وأنهض وأنا أشعر أن أحدهم مد يده إلى صدري وغسل قلبي بصورة مـا لا أعرف كنهها.

طوال طريق العودة أسترجع القصة القديمة التي لعبت فيها دور البطولة. أسترجعها مئات مرات فلا يطالعني غير الوجه القبيح للخسارة ..

«منذ عشرين سنة آمنتُ أن رجلاً في الثلاثين لن يُعرضني لما قد يجره عليّ الارتباط بشاب صغير من سني. لكن الخذلان علّمني درسه الأول وجاءني على يده.

«أنا أكره الرجال في الثلاثيـن.. ثلاثينياتكم تُذكرني بعرج روحي وأثر الكدمة الزرقاء التي لم تتلاشى برغم مرور عشرين سنـة. ..

«ربما كان لابد وأن يحدث لي ذلك. أنا خذلت أحبّتي من أجله، فكان لِزاما عليه أن يخذلني».

يستمع لما تقول ويتركها تفرغ ما في جوفها وعينيها كما تشاء. يكتشف أن المرار يغلّف روحها، وأن الأمر ليس صدًّا أو تدلل كما ظنّ. الأمر أعقد وأعمق وأمرّ بكثير. يُفكّر في مدى قدرته على دعمها ومساندتها. هل لديه الطاقة؟ الحب؟ قوة التحمل؟ طول النَفَس؟. لا يعلم ولم يعد متيقنًا من أنه يستطيع حمل هذا العبء عن روحها المثقلة. يربت على يدها ويُخبرها أن الجميع -لا شك- سامحها، هيّ فقط من لم تُسامِح نفسها. وأن لا

أحد يستطيع الآن مساعدتها. ساعدي نفسك يا ليلى؟ رددها مرتين وهو يدفع كرسيه لينهض. للحظة تسمّرت وهي تكتشف أنه يرحل. لكنها ابتسمت وتنهدت الصعداء. أخبرها أنه لن يفعل كما فعل غيره من قبل. لن يعدها بشيء لا يستطيع الإيفاء به. وهو لا يعلم إن كان بمقدوره أن يحمل عنها عبئها وأن يحلّي المرار الكامن في روحها. تشكره لأنه لم يتظاهر بخلاف ما شعُر به. تنهض هي الأخرى وتُسلّم عليه ويمضيان في عكس الاتجاه.

في اليوم التالي، أهاتف عيادة الطبيب النفسيّ لأحجز موعدًا. أترك البيت قبل الموعد المحدد بساعتين. أتجه نحو المقابر. أقف أمام قبر أمي وأقرأ الفاتحة. أخبرها بصوت يغلفه قليل من الارتياح: إنها «الكارما» يا أمّي. خذلتُك، فخذلني، وانتهت الدائرة. أنا فقط من أجلد ذاتي منذ خمسة عشر سنة دون داع. أخطأت وعوقبت، وأظن أنه حان الوقت كي أُسامِح نَفسي وأبدأ من جديد.

شكر خاص

لـ أحمد عبدالحفيظ..

الصديق الصدوق، رفيق الطريق.. الذي يُعاني الأمرّين معي في دفعي نحو الكتابة ومراجعة كل ما أكتب -في أي وقتٍ أُراسلهُ فيه- بإخلاص وحب كما لو أنه يخصّه.